الألف كتاب (الثانى) 1

وقصص أخرى

تأليف : برتراند راسل
ترجمة : شاكر ابراهيم
مراجعة : عبد الحليم البشلاوى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الألف كتاب (الثانى) ١

أحلام الأعلام

وقصص أخرى

أحلام الأعلام

وقصص أخرى

تأليف : برتراند راسل

ترجمة : شاكر ابراهيم

مراجعة : عبد الحليم البشلاوى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

الاخراج الفنى
البير جورجى

حلم مستر باودلر

هناء أسرة

لم يحدث يوما أن أظهر السيد « باودلر » ـ المؤلف الجديد بالتقدير لكتاب « شكسبير الأسرة » الذى يمكن أن تقرأه أكثر الفتيات براءة دون أن يتضرج وجهها استحياء ـ فى يقظته أدنى شك فى جدوى ما يضطلع به من أعمال ، لكن يلوح أنه مازال يكمن فى أعماق اللاشعور لذلك الرجل الطيب ، صوت خافت طابعه الخبث والسخرية . لقد كان من دأبه فى أيام الآحاد أن يوزع بسخاء على أفراد أسرته قطعا من لحم الخنزير ، دون أن يترك لنفسه شيئا يذكر ، تصحبها البطاطس المسلوقة والكرنب ، تليهما شطائر الكعك . وكان يخص نفسه ، دون سائر أفراد الأسرة ، بقدر معقول من الجعة الصفراء اللون ، كما كان من عادته أن يقوم بنزهة قصيرة عقب هذه الوليمة ، ثم حدث يوما أن انهمر المطر غزيرا وتساقط الجليد ، فسمح لنفسه بالخروج على هذا الروتين فاذا هو يستريح فى مقعد يطالع كتابا مفيدا ، ولما لم يكن الكتاب المفيد جدا ممتعا فقد أخذته سنة من النوم . وفى غفوته انتابه الكابوس التالى :

ساد العالم بأسره الاعتقاد بان « مستر باودلر » مثال الفضائل مجتمعة ، وما انفك هذا الاعتقاد يسيطر على الكثيرين ، بيد أن سببا رهيبا حمله يوما على أن يشك فيما اذا كان يمثل حقا كل ما توسمه فيه جيرانه من صفات حميدة ..

وكان « باودلر » قد شن ، فى شبابه ، حملة ضارية على ويلكس (الممثل لويلكس والحرية) ، الذى كان يعتبره ـ ولم يعدم لذلك سببا ـ فاسدا داعرا ، والذى كان وقتها قد تخطى ربيع الحياة ، ولم يعد قادرا على الانتقام الذى كان أمرا طبيعيا بالنسبة له فى السنين الخوالى ، ومن هناك ترك للشاب «سبفكنز» فى وصيته قدرا وافرا من المال بشرط أن يجلب الدمار على رأس مستر باودلر بكل ما أوتى من قوة . ويؤسفنى القول أن مستر « سبفكنز » قبل التركة الحقيرة بلا تردد .

وبغية تنفيذ ما انطوت عليه وصية « ويلكس » من شـــروط زار سبفكنز » مستر باودلر ، تحت ستار الصداقة الزائفة ، فرآه ينعم بغبطة عارمة وبهناء تام بين أفراد أسرته · كان يحمل فوق كل من ركبتيه طفلا وهو يردد : « امتط حصانا خشبيا الى محطة بانبورى كروس ! » · وسرعان ما أخذ الطفلان الآخران يصيحان : « لقد جاء دورنا يا أبانا » · فاستمتعا ، بدورهما ، بفترة من التأرجح والمرح · أما مسز باودلر البدينة الحسنة الطويلة ، من لا تبرح الابتسامة شفتيها ، فراحت تراقب المشهد السعيد وقد انهمكت فى اعداد الشاى ·

وبتلك اللباقة الرائعة التى حملت مستر ويلكس على اختياره ، قاد سبفكنز الحديث الى الموضوعات الأدبية التى كان يعلم أنها عزيزة على قلب مستر باودلر ، والى المبادىء التى كانت تدفع ذلك الرجل النبيل الى تعديل مؤلفات كبار الكتاب لتكون على نحو يسمح بتداولها بين الفتيات · وظل الوئام مخيما حتى نهض مستر سبفكنز لينصرف عقب احتســاء الشاى ، وبعد أن رأى مسز باودلر عبر باب المطبخ وهى تغســل أقداح الشاى ، وعند انصرافه بادره بالقول :

« عزيزى باودلر ، لقد تأثرت بما تنعم به من هناء عائلى ، لكن بعد دراستى المستفيضة المدققة لما حذفته من أعمــال « شاعر آفون » لا يسعنى الا أن أستنتج أن هــؤلاء الأطفال الباســمين مدينون بوجودهم « للتناسل العذرى · (Parthenogenesis)

فاستشاط السيد باودلر غضبا وصاح : « أخــرج » · وصفق الباب فى وجهه ، لكن وآسفاه ، لقد تناهت الكلمة البشعة الى سمع مسز باودلر رغم قرقعة أقداح الشاى ، ولم تكن تفقه مغزاها ، فدفعها جهلها بها وما أبداه زوجها من اعتراض ، الى الاعتقاد بأنها كلمة نابية ولا ريب ·

ولم تكن كلمة من الكلمات التى يمكنها أن تستفسر عن معناها من زوجها ، ولو فعلت لكان الجواب الوحيد هو : « يا عزيزتى ، انها تعنى ما لا يخطر ببال النساء الصـــالحات » ، ومن ثم لجأت الى أساليبها الخاصة · كانت تلم بكل ما يتعلق بالجزء الأخير من الكلمة (Genesis) أما مقطعها الأول فظل خافيا عليها · وذات يوم تسللت ، فى جرأة بالغة ، الى مكتبة زوجها فى غيبته ، وجذبت القاموس الكلاسيكى وراحت تقرأ كل ما ذكر حول المقطع (Parthenon) ، بيد أنها لمتفقه معنى تلك الكلمة الغريبة اذ لم يكن ثمة علاقة مطلقا بين مقطعيها ·

وكان كلما باء بحثها بالفشل ، استبد بها الأمر فغدت أعمال البيت التى كانت تزاولها على الوجه الأكمل مهملة غير متقنة · واستغرقت فى التفكير حتى نسيت اعداد « الجمبرى » مع الشاى يوم الأربعاء ، مع أن ذلك لم يغب عن بالها يوما واحدا من أيام الأربعاء منذ اليوم السعيد الذى ارتبطت فيه مستر باودلر بروابط القران المقدسة ·

وبلغت الأمور حدا دفع مســـتر باودلر الى طلب المعونة الطبية ، وأخذ الطبيب يطرح أسئلة لا حصر لها ، ويقرع جبهة مسز باودلر بمطرقة خشبية صغيرة ، ويتحسس الأجزاء المتورمة من جسدها ، ثم أخذ عينة من دمها ، ولما منيت تلك الجهود بالفشل قال الطبيب فى النهاية :

« حسنا ، أخشى يا سيدتى العزيزة ، ألا يكون ثمة دواء لما تشكين منه سوى (edax rerum) (لفظ متحذلق يطلقه على الزمن) فعلينا أن نتطلع الى الزمن الشاق العظيم » ·

فانبرت مسز باودلر تقول « ألا تفضلت ، أيها الطبيب العزيز بأن تدلنى على مكان هذا الدواء ؟ » ·

فأجاب الطبيب : « من أى مكان » ·

ومع أنها لم تكن تثق كثيرا بحكمته اذ لم تكشف له ، على أية حال ، عن مصدر الداء ، فقد مضت الى صيدلى الأسرة وسألته عما اذا كان بوسعه أن يعطيها الدواء (edax rerum) فتضرج وجهه خجلا وقال متلعثما « ليس هذا ، يا ســـيدتى ، ما يجمل أن تطلبه النســـاء المهذبات » ·

فعادت أدراجها تستبد بها الحيرة والاضطراب ·

وكانت اذا فشلت فى أمر دفعتها حالتها اليائسة لتجرب آخر ، ولما كان من مهام زوجها أن يطالع كتبا من النوع الذى يرغب فى أن يطمس معالمه ، فقد أخذت تفحص قوائم الكتب المرصوصة فوق قمطره ، ووقع بصرها على اسم وعنوان من حسبت ، على أساس ما بعث الى مســـتر باودلر من مواد أنه يملك كتابا حول مو ضوع رهيب كا لذى يشغل بالها · وبعد أن حجبت وجهها بنقاب كثيف ، خاطرت بالذهاب الى داره ، وقالت له فى جرأة :

« أريد ياسيدى ، كتابا يرشدنى حول التناسل العذرى » ·

فأجاب وهو يراقب مفاتنها التى يخفيها نقابها : « ان التناسـل العذرى يا سيدتى ، هو ما لن تتعلمى شيئا عنه لو صحبتنى الى الطابق العلوى » ٠

فلاذت بالفرار هلعة ملتاعة ٠

ولم يبق أمامها سوى أمل واحد ، أمل يتطلب قرارا حاسما وشجاعة لم تكن تؤمن بأنها من خصالها ٠ تذكرت أن زوجها ، فى سبيل اتمام كتاب « شكسبير الأسرة » ، الذى يعد نعمة لكل أسرة محافظة محتشمة ، قد اضطر الى أن يقرأ ، وهى مهمة شاقة ولا شك ، الكتب غير المنقحة لذلك المؤلف المتحرر بصورة تدعو الى الأسف ٠ كما كانت تعلم أنه يملك ، خلف الأبواب الموصدة لدولاب كتب معين ، كتابا عن شكسبير كتب قبل باودلر ، حيث وضع تحت الفقرات التى ارتأت حكمته حذفها ، خطوطا لتيسير مهمة عامل الطباعة ٠ وطفقت تفكر ، « لامراء فى أننى سأعثر فى الفقرات الكثيرة المخططة التى حذفت ، على لفظ « التناسل العذرى » ، ولسوف يتضح معناها من سياق الكلام ٠

وذات يوم دعى زوجها لالقاء خطاب فى مؤتمر بائعى الكتب الأفاضل، فتسللت الى مكتبه وعثرت على مفتاح دولاب الكتب الموصد بعد البحث فى قمطره ، وفتحت الأبواب المشئومة ، وتناولت كتابا باليا بما يحوى من قصص مريعة ، وراحت تقلب صفحاته الواحدة تلو الأخرى ، فلم تعثر على الكلمة المنشودة ، بل عثرت على كثير مما لم تكن تبحث عنه ، ومضت تقرأ ، دون حساب للزمن ، وقد استبد بها الاحساس بالفزع رغم المتعة ، وبالثورة رغم الانهماك ٠ وبينما هى مستغرقة اذ بالبـاب يفتح ، على حين غرة ، ويقف زوجها بالمدخل وبلهجة تنم عن الفزع والهلع صـاح بها :

« يا الهى ، أى كتاب أراه بين أناملك يا ماريا ؟ ألا ترين السـم يتقاطر من صفحاته ، وعدوى الأفكار الفاسدة تنتقل من كل حرف من حروفه الى عقل الأنثى غير المضمون ؟ وهل غاب عن بالك أن مهمتى فى الحياة هى صون الأبرياء من مثل هذا الدنس والفسق ؟ ياله من فشل ذريع منيت به فى عقر دارى ! » ٠

وهنا انفجر الرجل الطيب باكيا وانهمرت الدموع من عينيه ٠٠٠ دموع الاحساس بخيبة الأمل والأسى والغضب البرىء ، وفجأة أحست

بخطيئتها ، فألقت بالكتاب جانبا وهرولت الى غرفتها وهى تنفجر فى نشيج تتقطع له نياط القلب ·

ولم يكن لما اعتراها من ندم فائدة · لقد قرأت أكثر مما ينبغى ولن تنسى منه كلمة واحدة ، وراحت تلح على ذهنها كلمات مخزية ، وصور مفزعة للملذات البشعة · وأخذت حالتها تتفاقم ساعة بعد الأخرى ويوما بعـد يوم حتى أصيبت بمس من الجنون اضطروا معـه الى نقلهـا الى مستشفى الأمراض العصبية ، وهى تردد فضائح شكسبير على الملأ · وما أن خفتت كلماتها حتى جثا مستر باودلر على ركبتيه يسأل خالقـه عما اقترفه من ذنوب يستحق عليها مثل هـذا العقاب · لكنه لم يتلق جوابا ، على النقيض منك ومنى ·

حلم المحلل النفسى

التكيف ـ الهروب

لقد كتب على الثوار أن يقيموا مذاهب جديدة ، والسبيل الى ذلك فى ميدان التحليل النفسى هو ما يتضمنه ، بصورة مقنعة ، كتاب بعنوان : « علاج للثورة » للدكتور « روبرت لندنر » ٠ ولا يسع المرء الا أن يفترض أن عددا كبيرا من المحللين النفسـيين تنتابهم الهواجس الدفينة ، ولقد داهم أحدهم الكابوس المزعج التالى رغم ما تتسم به آراؤه فى سـاعات يقظته من استقامة واعتدال :

كانت اللجنة السداسية تعقد اجتماعها السـنوى فى قاعة نادى الروتارى بلمبو ، يطل عليها تمثال لشكسبير ، وكانت تضم : هاملت ، ولير وماكبث ، وعطيل ، وأنطونيو ، وروميو ، هؤلاء الأعضاء الذين قام الدكتور بومباستيكوس ـ طبيب ماكبث ـ بتحليلهم وهم بعد أحياء على وجه الدنيا ٠ وكان ماكبث ، قبل أن يلقنه بومباستيكوس الحديث باللغة الانجليزية العادية ، قد تساءل بلغة التكلف التى كان يستخدمها آنذاك : « هلا استطعت علاج عقل مختل ؟ » ٠ فأجاب الطبيب : « ياله من سؤال! هذا ما لاشك فيه ، وما عليك الا أن تضـطجع فوق أريكتى وتمضى فى الحديث ، وسوف أنصت اليك مقابل جنيه عن كل دقيقة » ٠ وسـرعان ما وافق ماكبث ، كما فعل الخمسة الآخرون فى فترات متباينة ٠

وطفق ماكبث يسرد كيف راودته يوما أوهام القتل ، وأنه رأى فى حلم طويل كل ما يذكره شكسبير ٠ والتقى ، لحسن حظه ، بالطبيب فى الوقت المناسب ، فكشف له أنه انما يتصور دنكان أبا والليدى ماكبث أما، واستطاع الطبيب ، بمشقة ، اقناعه بأن دنكان لم يكن ، فى حقيقة الأمر ، أباه ، ومن ثم أضحى من الرعايا المخلصين فلما مات مالكولم ودونالبين فى سـن مبكرة ، خلفهما ماكبث فى الوقت المعين ، وظل مخلصـا لليدى ماكبث ، وقضيا أيامهما يضـطلعان بجليل الأعمال ٠ فشـجع ماكبث

الكشافة ، وفتحت هى الأسواق ، وعاش طويلا يحظى بتبجيل الجميع ماخلا البواب ٠

وهنا نطق التمثال الذى كان يحمل حاكيا بداخله « ان أيامنا السالفة كلها تضىء للحمقى الطريق الى الموت الزؤام » ٠

وفزع ماكبث وقال : « لعنة الله على هذا التمثال ، لقد كتب عنى ذلك الذى يدعى شكسبير أعنف الروايات هجوما وتشهيرا ،وهو لم يكن يعرفنى الا عندما كنت فتى يافعا لم ألتق بعد بالدكتور بومباستيكوس ، وراح يطلق لخياله العنان ليصور ما كان يأمل فيما ارتكبه من جرائم ولست أرى مبررا لاصرار الناس على تكريمه وتبجيله ، مع أنك تكاد لا تعثر فى مسرحياته على شخصية « ليست أوعى منى بالدكتور بومباستيكوس » ٠ واستدار نحو « لير » متسائلا : « ألا توافقنى ، أيها العجوز ؟ » ٠

كان لير رجلا طابعه الهدوء والسكينة ، لا يميل الى الثرثرة ، ورغم تقدمه فى العمر كان يحسن تصفيف شعره ، وتنسيق هندامه ، ويبدو أن النعاس كان يغالبه فى معظم الأحيان ، فما لبث سؤال ماكبث أن أيقظه ٠

فأجاب « لير » : « بلى ، اننى أسلم بذلك ، أتعلم أنه قد استبد بى ، ذات يوم ، شعور بالنفور من ابنتى العزيزتين : ريجان وجونريل ! وخيل الى أنهما تضطهداننى ، كما توهمت أنهما قد أخذتا تحييان عادة أكل لحوم الآباء ٠ ولم أتبين حقيقة هذا الوهم الا بعد أن أماط الدكتور بومباستيكوس عنه اللثام ، وانزعجت وبلغ منى الرعب أننى اندفعت ، تحت جنح الظلام ، فى قلب العاصفة ، فابتللت وأصبت بنزلة برد أدت الى حمى ، وخيل الى أن المقعد فى بادىء الأمر « جونريل » ثم تحول الى ريجان ٠ ومما زاد حالتى سوءا مهرجى ، وكذلك رجل معتوه عارى البدن دفعنى الى الايمان بالعودة الى الطبيعة ، وطفق يحدثنى عن أمور لا أهمية لها مثل « بيليكوك » و « الطفل رولاند » ٠ وبرح بى المرض وبلغ ، لحسن الحظ ، حدا اقتضى الاستعانة بالدكتور بومباستيكوس الذى سرعان ما أقنعنى بأن ريجان وجونريل عطوفان كحسبى بهما دائما ، وأن ما استبد بى من أوهام انما مرده الى الشعور بالأسف البالغ ازاء ما بدر من كورديليا الجاحدة ٠ ومنذ أن نلت الشفاء وأنا أنعم بحياة طابعها الهدوء والاستقرار ، فلا أظهر الا فى المناسبات الرسمية مثل أعياد ميلاد ابنتى حين أطلت من احدى الشرفات فيهتف الجمهور مرددا : « تحيات ثلاث

للملك العجوز ! » . لقد كانت الهتافات تستميلنى ، لكن يسعدنى القول بأن هذا الاحساس قد تبدد وتلاشى .

وهنا انطلق التمثال يقول : « انك ، أيها الرعد العاصف ، تصعق كروية الأرض السميكة فتحيلها أرضا منبسطة » .

وتساءل ماكبث : « وهل تحس الآن بسعادة ؟ » .

فقال لير : « آه أجل ، اننى سعيد بقدر ما طال النهار ، فأنا أجلس فى مقعدى متظاهرا بالصبر ، أو تأخذنى سنة من النوم دون التفكير فى شىء » .

التمثال : « بعد نوبات حمى الحياة يروح فى سبات عميق » .

فقال لير : « يا له من قول أخرق ! ، ان الحياة ليست نوبات من الحمى ، كما أنى أنعم بنوم هادىء رغم أنى لا أزال على قيد الحياة ، وهذا القول ضرب من التفاهة التى كانت تتملكنى قبل أن أعرف الدكتور بومباستيكوس » .

وأطلق التمثال لنفسه العنان ليدلى بملاحظة أخرى فقال : « عندما نولد ، فصرخ لأننا جئنا الى هذا المسرح الكبير الذى يضم الأغبياء » .
وصاح لير ، وقد فقد لحظة مابدا عليه من قبل من اتزان وكبح جماح النفس : « مسرح الأغبياء ! ليت التمثال يتعلم كيف يفوه بما يعقل ، أيجرؤ على اعتبارنا أغبياء ؟ نحن الذين نعتبر أكثر مواطنى « لمبو » احتراما وتبجيلا . لعل الدكتور بومباستيكوس يستطيع علاج التمثال ! فما رأيك يا عطيل ؟ » .

فقال عطيل : « حسنا ، لقد عاملنى ذلك الوغد شكسبير أسوأ مما فعل بك وبماكبث ، فاننى لم ألتق به سوى بضعة أيام كنت أجتاز خلالها أزمة فى حياتى . لقد أخطأت بزواجى من فتاة بيضاء اذ سرعان ما استبان لى استحالة حبها الخالص لرجل ملون . وحين عرفنى شكسبير كانت ، فى الحقيقة ، تنسج خيوط مؤامرة لتلوذ بالفرار مع مساعدى كاسيو . فملأت الغبطة نفسى ، اذ كانت كابوسا جاثما فوق صـــدرى . بيد أن شكسبير توهم أن الغيرة قد استبدت بى ، ولما كنت متيما آنذاك بالبلاغة ، رحت ألقى خطبا تنم عن الغيرة ارضــــاء له . وكشـــف لى الدكتور بومباستيكوس الذى التقيت به وقتئذ ، أن أساس المشكلة برمتها هو مركب النقص الذى نشأ عن كونى أسود البشرة ، وكنت أحسب دائما فى حياتى

الواعية أنه شيء رائع أن أكون أسود اللون ·· أكون أسود ومع ذلك مرموق المكانة · فما لبث الدكتور بومباستيكوس أن أزاح النقاب عن مشاعر أخرى تكمن فى اللاوعى ، مشاعر تثير ثورة لا تهدأ الا بالقتال ، وبعد شفائى منها عزفت عن الحرب ، وتزوجت من امرأة سوداء ، وصارت لى أسرة كبيرة ، وكرست حياتى للتجارة · ولم أعد أشعر بميل الى « التفاخر » أو التفوه بذلك الضرب من الهراء الذى كان يثير فى نفوس المواطنين العقلاء دهشة واستغرابا » ·

وهتف التمثال : «كبرياء وعظمة وواقعة حرب مجيدة » ·

فقال عطيل : « أنصت اليه ، لعل هذا عين ما كنت سأردده لو لم ألتق بالدكتور بومباستيكوس ، بيد أننى لا أؤمن اليوم بالعنف ، وأرى أن الدهاء الناجح أجدى منه بكثير » ·

فتمتم التمثال : « لقد أمسكت بعنق الكلب المختون » ·

وفجأة انبعث بريق من عينى عطيل وصاح قائلا : « لعنة الله على هذا التمثال ! سوف أقبض على عنقه ما لم يأخذ حذره » ·

وتساءل أنطونيو الذى لم ينبس ببنت شفة : « وهل تحب زوجك السوداء بقدر ما كنت تحب ديدمونة ؟ » ·

فتأوه عطيل قائلا : « حسنا ، انها مسألة أخرى كما تعلم ، فهى علاقة أكثر نضوجا وأشد ارتباطا بواجباتى العامة ، فلا يشوبها تطرف وعنف لا مبرر لهما ، ولا تغرينى على أن آتى أعمالا يأسف لها أى عضو مخلص من أعضاء الروتارى » ·

فاستطرد التمثال : « لو أصابتها المنية اليوم لكانت أشد سعادة » ·

وقال عطيل : « أصغ الى ما يقول ، هذه عين الملاحظة التى أبرأنى منها بروفسير بومباستيكوس ، وبفضله ، من لا أقوى على أن أقدم له ما يجب من الشكر والامتنان ، لم أعد الآن أحس بتلك المشاعر المتطرفة · فزوجى سيدة طيبة القلب · فهى تعد لى طعاما شهيا ، وترعى أبنائى ، وتدفىء خفى · ولست أرى مزيدا يبتغيه رجل عاقل من زوجة » ·

وتمتم التمثال : « أطفىء النور ، ثم أطفىء النور » ·

واستدار عطيل نحوه ، وقال : « لن أنبس ببنت شفة ما دمت تقاطعنى ، ولكن لنسمع قصتك يا أنطونيو » ·

قال أنطونيو : « حسنا ، لا يخفى على جميعكم ما ذكره عنى شكسبير من أكاذيب مجحفة ·حدث يوما ـ ولا يفوتنى القول ان ذلك اليوم ليس ببعيد ـ أننى تصورت كليوباترا أما لبس الفسق معها حراما ، كما كان قيصر على الدوام بمثابة أب لى ، وكان من الطبيعى أن أنظر اليها كأم فى ضوء علاقتها بقيصر لكن شكسبير زعم ، ونجح فى هذا الزعم على نحو ضلل المؤرخين الجادين أنفسهم ، بأن افتتانى بها كان متأصلا فى أعماق نفسى وقادنى الى الدمار · لم تكن هذه هى الحقيقة طبعا ، وكشف لى الدكتور بومباستيكوس الذى ألتقيت به ابان معركة أكتيوم ، ما كان يعتمل فى عقلى اللاشعورى ، وسرعان ما تبينت بفضل قوة تأثيره ، أن كليوباترا لم تكن تتحلى بما خلعته عليها من مفاتن ، وأن حبى لها لم يكن سوى نزوة عاطفية · وبفضله استطعت أن أتصرف بحكمة فوضعت حدا للنزاع القائم بينى وبين أوكتافيوس وعدت الى شقيقته ، زوجى الشرعية على أية حال · ومن ثم نعمت بحياة مبجلة وأصبحت أهلا لعضوية هذه اللجنة، وحين اضطرنى واجبى الى قتل كليوباترا أحسست بالندم ، بيد أنه لم يكن هنالك اجراء آخر يدعم الصلح بينى وبين أوكتافيا وشقيقها · لقد كان أداء هـذا الواجب بغيضـــا على النفس بلا مراء ، لـكن ما من مواطن مخلص يعزف عن أداء كل هذه الواجبات حين يقتضيها الصالح العام » ·

وتساءل عطيل : « هل كنت تحب أوكتافيا ؟ » ·

فأجاب انطونيو : « آه ، حسنا لست أعرف على وجه الدقة ما ينبغى أن يسمى حبا · انى أشعر نحوها بالاحساس الذى يجب أن يشعر به نحو زوجه كل مواطن وقور مبجل · لقد كنت أكن لها التقدير ، ورأيت أنها رفيقة كفاح وأهل للثقة · وتسنى لى بمشورتها أن أعيش طبقا لوصايا الدكتور بومباستيكوس وتوجيهاته · أما الحب العاطفى ، كما كنت أخاله قبل أن التقى بذلك الرجل الشهير ، فقد أنحيته جانبا وحظيت ، بدلا منه باعجاب رجال الأخلاق » ·

وصاح التمثال : « من بين آلاف القبلات العديدة أطبع على شفتيك القبلة الأخيرة الفاترة » ·

وما أن تناهت هذه الكلمات الى سمع أنطونيو حتى ارتعد من أم رأسه الى أخمص قدمه ، وأخذت عيناه تذرفان الدموع ، وبمشقة تمالك نفسه وقال : « كلا ، لقد قطعت صلتى بهذا كله » ·

فأردف التمثال : « لقد ولى اليوم المشرق ، وها نحن نواجه اليوم المظلم ! » ·

قال أنطونيو : « ان هذا التمثال لفاجر حقا ·· أيحسب أن من اللائق التحدث عن « اليوم المشرق » وهو يعنى الارتماء بين أحضان عاهر ؟ لست أرى سببا يحمل أعضاء الروتارى على احتماله والصبر عليه ، لكن ما رأيك يا روميو ؟ لقد انغمست بدورك فى نزوة الحب على حد ما ذكره المستهجن العجوز » ·

فأجاب روميو : « حسنا ، أعتقد أنه كان أبعد عن جادة الصواب مما كان عليه بالنسبة لك ، اننى أذكر قصة حب مراهقة مع فتاة لست على يقين من اسمها · ولعله كان أقرب الى جمينا ـ أو جوانا ـ آه ، كلا ، لقد تذكرته ، انه جوليت ! » ·

وقاطعه التمثال قائلا : « يلوح أنها تتدلى فوق وجنة الليل كلؤلؤة ثمينة فى أذن حبشى » ·

واستطرد روميو : « كنا جد صغيرين أحمقين ، وقد لقيت جوليت حتفها فى ظروف محزنة » ·

وعاد التمثال يقاطعه : « ان جمالها يحيل هذا القبر قاعة ولائم تشع ضوءا » ·

ومضى روميو يقول : « لقد أبرأنى الدكتور بومباستيكوس الذى كان يعمل وقتئذ صيدليا ، من اليأس الأخرق الذى تملك نفسى فترة وجيزة· وكشف لى أن الدافع الحقيقى الذى كان يحركنى انما هو ثورة على الأب حملتنى على الزعم بأنه أمر بالغ الشأو أن أقع فى غرام فتاة من أسرة كابوليت ، وراح يشرح كيف أن الثورة على الأب ظلت مصدرا للسلوك غير السوى عبر الأجيال ، كما ذكرنى بأن المراهق الذى هو ابن اليوم سوف يصير حسب قانون الطبيعة أبا فى الغد ، وأبرأنى من الكراهية اللاشعورية التى كنت أحملها لأبى ، وساعدته على أن أصبح جديرا بأسرة مونتاجيو وشرفها · وفى الوقت المعين تزوجت من ابنة شقيق الأمير ، وحظيت باحترام الجميع وكففت عن التعبير عن تلك المشاعر المتطرفة التى لا تؤدى الا الى الدمار ، كما أوضح شكسبير » ·

قال التمثال : « ان سمك لسريع المفعول ، وهكذا أموت وأنا أطبع قبلة على شفتيك » ·

واستطرد روميو : « حسنا ، هذا يكفينى ، فلنسمع قصتك يا هاملت » ٠

واستهل هاملت حديثه قائلا : « كنت أسعد حظا فى لقائى بالدكتور بومباستيكوس ، فلا مراء فى أن حالتى كانت جد سيئة ٠ فقد كنت مخلصا لأمى ، وتوهمت أن هذا هو حالى مع أبى ٠ فما كان من الدكتور بومباستيكوس الا أن أقنعنى بعدئذ بأنى كنت أبغضه كل البغض لغيرتى منه ٠ وحين تزوجت أمى من عمى تمثلت الكراهية اللاشعورية لأبى فى كراهية شعورية لعمى ، وبلغ تأثير هذا الشعور على نفسى حدا انتابنى معه الهذيان والخيالات العصبية ، وحسبت أننى شاهدت أبى ، وتوهمت أنه يخبرنى أن أخاه هو الذى أرداه قتيلا ، ورأيت من واجبى قتل عمى ، وخلته يوما مختبئا خلف احدى الستائر ، فوجهت طعنة الى ما تصورت أنه عمى ٠ ولم يكن الذى حسبته فى جنونى رئيسا للوزراء ، سوى فأر ، وحمل هذا التصرف كل امرىء على الاعتقاد بأن جنونى خطير ، فاستدعى الدكتور بومباستيكوس لعلاجى ٠ فأدى لى خدمة جليلة ، اذ جعلنى أتنبه لعواطفى المحرمة نحو أمى ، وكراهيتى اللاشعورية لأبى وتحول هذا الشعور الى عمى ٠٠ كان يتملكنى احساس سخيف جدا بالاعتداد بالذات ويتراءى لى أن الزمن قد فقد ترابطه ، وأننى خلقت لاصلاحه . فأقنعنى الدكتور بومباستيكوس بأننى أصغر من أن ألم بفنون الحكم ٠ وأدركت خطأى فى معارضة النظام القائم الذى يدين له بالولاء كل من هو سوى ٠ وأبديت أسفى لأمى عما بدر منى من كلمات نابية ، وأقمت علاقات طيبة مع عمى ، وان يكن من واجبى الاعتراف بأنى كنت لا أزال أراه انسانا يبعث على الملل وتزوجت من أوفليا الزوجة المطيعة المستسلمة ، كما أمسكت بأعنة الحكم فى الوقت المعين ، وتسنى لى فى المنازعات التى وقعت مع بولندا أن أصون شرف بلادى بخوض معارك كللت بالظفر ، ثم قضيت نحبى أحظى باحترام الجميع وتبجيلهم ، ولم ينل عمى نفسه تكريما قوميا يفوق ما نعمت به » ٠

قال التمثال : « ليس ثمة ما هو خير أو شر ، وانما التفكير هو الذى يحدد ذلك » ٠

قال هاملت : « اصغ الى الصبى العجوز الذى ما انفك يردد الهواء عينه ٠ أليس واضحا أن ما قمت به كان خيرا ؟ وأن ما زعم شكسبير أننى ارتكبته ، كان شرا » ٠

وتساءل ماكبث : « ألم يكن لك صديق فى مثل سنك يشجعك على حماقاتك ؟ » ٠

فأجاب هاملت : « آه ، أجل ، لقد كان ثمة شاب ، على حد قولك ، لكن ما اسمه ؟ أكان يدعى نلسون ، كلا ، لا أظن أن ذلك الاسم صحيح ، آه لقد تذكرت ٠٠ كان اسمه هوريشيو ٠ أجل ، كان له ، ولا شك ، تأثير سيىء على نفسى » ٠

فقال له التمثال : « نعمت مساء أيها الأمير اللطيف ، ولتنشد أسراب الملائكة ما يبعث الارتياح الى نفسك » ٠

فقال هاملت : « آه أجل هذا رائع للغاية ، انها عين الملاحظة غير الدقيقة التى كانت تستهوى شكسبير ، أبرأنى الدكتور بومباستيكوس حتى تخليت عن هوريشيو وصادقت روزنكرانتر وجيلدنسترن اللذين كانا سويين ، كما ذكر بومباستيكوس » ٠

وتمتم التمثال : « بمن أثق به ثقتى بثعابين ذات أنياب » ٠

وتساءل أنطونيو : وما رأيك فى هذا كله وأنت الآن فى عداد الموتى ؟ » ٠

فأجاب هاملت : « آه ، حسنا لا أنكر أن ثمة أوقاتا أشعر فيها بضرب من الندم على الحماس القديم ، والكلمات البراقة التى كانت تنساب من بين شفتى ، والبصيرة الثاقبة التى كانت لنفسى مصدر عذاب وبهجة فى آن واحد ٠ وتجول بخاطرى الآن مقطوعة بليغة رائعة من ابداعى مطلعها : « يا للانسان من عمل رائع ! » لست أنكر أن هذا الانسان يحظى بنوع من التقدير فى عالمه المجنون ، لكنى آثرت الحياة فى العالم العاقل ، عالم الرجال الجادين الذين يؤدون الواجبات المألوفة بدون شك وبلا تساؤل ، الذين لا تمتد أبصارهم أسفل السطح خشية ما قد يرونه ٠ والذين يكرمون آباءهم وأمهاتهم ويرتكبون الجرائم التى ساعدت على نجاح آبائهم وأمهاتهم وازدهارهم ، والذين يناصرون الدولة دون تساؤل عما اذا كانت جديرة بمناصرتهم ، والذين لا يشتركون فى أكذوبة ما لم تخدم مصالح الأقوياء ، لقد آمنت بهذه العقيدة متبعا تعاليم الدكتور بومباسيتكوس ٠ وبهذه العقيدة عشت ، ووفق تعاليمها قضيت نحبى » :

وعاد التمثال يقول : « ونحن فى سبات الموت ، لابد للأحلام التى تراودنا بعد أن ننفض عنا غلاف الفناء وأن تبعث الراحة فى نفوسنا » ٠

فقال هاملت : « هراء أيها العجوز الثابت على العهد ، فأنا لا أرى أحلاما قط ، وأنا أستمتع بالعالم كما أراه ، وهذا ما أتمناه ، فما الذى يوجد فى الدنيا ويتعذر على المدعين أمثالى تحقيقه ؟ » .

فأجاب التمثال : « لعل المرء يبتسم ، ويبتسم ، وهو وغد » .

فاستطرد هاملت : « حسنا ، اننى أوثر أن أبتسم وأكون وغدا على أن أبكى وأكون انسانا خيرا » .

قال التمثال : « رغم أننى أؤمن ، يا سيدى ، بكل ذلك حق الايمان ، الا أننى أعتقد أنه ليس من الأمانة فى شىء أن تقرر هذه الحقيقة على هذا النحو » .

فقال هاملت : « أجل ، وما قيمة العدالة فى نظرى ، اذا كان للظلم فائدة لنفسى » .

ومضى التمثال يقول : « ومن ذا الذى يتحمل سياط الزمن وسخرياته ؟ » .

فصاح به هاملت : « آه ، لا تعذبنى ! » .

وأردف التمثال : « لن تبرح هذا المكان قبل أن أضع أمامك مرآة علها تكشف لك أعمق جزء فيك » .

فصاح هاملت قائلا : يالى من محتال خداع ، وعبد ساذج ، الى الجحيم مع الدكتور بومباستيكوس ! الى الجحيم مع التكيف ! الى الجحيم مع الحكمة وكيل الثناء للأغبياء ! » . وما أن نطق بهذه الكلمات حتى سقط مغشيا عليه .

وقال التمثال : « الباقى سكون .. » .

وهنا تناهت الى الآذان صرخة غريبة ، دوت من الأعماق منبعثة من أنبوبة لم يسبق لأعضاء الروتارى أن لاحظوها ، وانطلق صوت معذب يقول فى أنين : « أنا الدكتور بومباستيكوس . اننى فى الجحيم ! اننى أعترف وأتوب ! لقد قتلت نفوسكم ، لكن بصيص الأمل الذى مازال يراود هاملت هو الذى أداننى . اننى أعيش فى الجحيم ، لكنى لم أعرف بعد الجريمة التى أودت بى الى هذا المكان اننى أعيش فى الجحيم لأنى آثرت الذل على المجد ، وفضلت الخنوع على العظمة والأبهة ، وطلبت السكينة والهدوء بدلا من وميض البرق ، ولأنى كنت أرهب الرعد بقدر ما أفضل الرذاذ

الرطيب الذى لا ينقطع · لقد حملتنى نوبة هاملت على أن أعرف خطيئتى · وفى الجحيم حيث أعيش تستبد بى عقد لا نهاية لها · وعبثا أدعو القديس « فرويد » وأتوسل اليه ، ولازلت أسير دوامة الجنون التى لا حد لها · فيا من كنتم ضحيتى تشفعوا لى ، أرفع ما جلبته عليكم من شر » ·

ولم ينصت اليه بقية الأعضاء الخمسة ، وانما استداروا فى سورة غضب نحو التمثال الذى جلب اليأس الى صـــديقهم هاملت ، وراحوا يوجهون اليه اللكمات العنيفة · فأخذ التمثال ينهار رويدا رويدا ، واذ لم يبق منه ســـوى الرأس تمتم قائلا : يا الهى ! يا لهؤلاء البشـــر من حمقى ! » ·

وظل الأعضاء الخمسة فى «ليمبو» · وبقى الدكتور «بومباستيكوس» فى الجحيم ، أما هاملت فقد حملته الملائكة ورسل النعمة الى السماء ·

(*) اختيرت أوفيليا لتخلف هاملت فى عضوية اللجنة ·

حلم الميتافيزيقى

RETRO ME SATANAS

تبين لى أن صديقى المسكين « أندريه بومبلوفسكى » ، أستاذ الفلسفة السابق باحدى جامعات وسط أوروبا التى اندثرت اليوم ، يعانى ضربا من الجنون لا ضرر منه ، بينما أتسمت أنا بمنطق قوى ، ولا أرى أن يتخذ العقل مرشدا فى الحياة بل وسيلة تساعدنا فى مبارياتنا الجدلية المسلية ، وتزودنا بأساليب لمضايقة خصومنا الذين هم دوننا ذكاء وسرعة بديهة ، ولم يكن بومبلوفسكى يشاركنى هذا الرأى فأطلق العنان لعقله يقوده كيفما شاء ، مما أسفر عن نتائج تدعو الى الدهشة والعجب ·· كان من النادر أن يجادل أو يحاور فظلت أسس آرائه ومبادئه غامضة فى نظر السواد الأعظم من خلانه · ولم يكن أحد يعرفه الا بعزوفه الدائب عن استخدام لفظ « لا » ومرادفاته ، فلم يكن يقول « هذه البيضة ليست طازجة » بل «ان تغييرات كيمائية قد طرأت على هذه البيضة منذ وضعها» ولا يقول «لا أستطيع أن أعثر على هذا الكتاب» بل«ان الكتب التى عثرت عليها غير التى أريدها ولا يقول « لا تقتل » بل « تمسك بالحياة » · ومن ثم لم تكن حياته عملية بيد أن البراءة كانت طابعها المميز ، ولذا أحسست نحوه بحب عارم · ذلك الحب هو الذى فتح فاه ، ولا ريب ، وحمله على أن يروى لى التجربة الرائعة التالية التى أنقلها بحذافيرها كما جاءت على لسانه :

انتابتنى ذات يوم حمى بالغة الخطورة كادت تودى بحياتى ، دهمتنى أثناءها ولفترة طويلة نوبة من الهذيان المستمر ، وحلمت أننى فى الجحيم ، وأن الجحيم غاص بأحداث غير محتملة الوقوع ولكنها ليست مستحيلة ، مما أسفر عن نتائج أثارت الدهشة والعجب · فلقد توهم بعض من حلت عليهم اللعنة ، لدى بلوغهم قاع الجحيم أن بوسعهم التغلب على الأبدية بلعب الورق ، لكن سرعان ما تبينوا أن ذلك أمر عسير ، لأنهم كلما خلطوا الورق ظهر منتظما تماما مبتدئا من الآس ومنتهيا بملك القلوب » الشايب» ·

وبالجحيم قسم يضم دارسى نظرية الاحتمالات ويحتوى على عدد كبير من الآلات الكاتبة والقردة التى كلما سـار أحدها فوق احدى هذه الآلات انطبعت احدى قصائد شكسبير الغزلية · وثمة مكان آخر لتعذيب علماء الطبيعة به مراجل ونيران ، لكن ما أن توضع المراجل فوق اللهب حتى يتجمد ما بها من ماء · وهنـاك حجرات خانقة للأنفاس عزف علمـاء الطبيعة ، بحكم خبرتهم ، عن فتح أية نافذة فيها ، اذ لو حدث ذلك لاندفع كل ما بها من هواء الى الخارج وأضحت الحجرات مفرغة من الهواء ، هذا الى جانب مكان للخبراء فى ألوان الطعام والشراب ، حيث كان يسمح لهم بأشهى الأغذية وأمهر الطهاة · لكن ما أن تقدم لهم شرائح اللحم المقدد ويقضمون منها ملء أشداقهم حتى يتبينوا أن مذاقها كبيضة فاسدة ولو أرادوا أكل بيض لكان بدوره أشـبه ما يكون بقطعة من البطاطس أصابها العطب ·

أما العذاب المبرح فكان من نصيب غرفة لا يقطنها سوى الفلاسفة الذين عارضوا فلسفة « هيوم » وفندوها ، أولئك الفلاسفة الذين لم يتعلموا الحكمة رغم وجودهم فى الجحيم ، وما انفك يسيطر عليهم ميلهم الفطرى الى الاستقراء ، لكن كلما قاموا باستقراء ثبت بطلانه فى اللحظة التالية ، وهذا لا يحدث الا فى السـنوات المائة الأولى من عذابهم يتعلمون بعدها احتمال تكذيب أى استقراء ، ومن ثم لا يفند الاستقراء الا بعد أن يغبر هذا الاحتمال قرن آخر من العذاب المنطقى ، وهكذا تستمر المفاجآت طيلة الابد رغم كونها فى كل مرة على مستوى من المنطق يفوق سابقتها ·

وهناك جحيم الخطباء الذين دأبوا ، وهم على قيد الحياة ، على استخدام بلاغتهم فى التأثير على الجماهير الغفيرة · ومع أن هذه البلاغة لم تفقد قوتها ولم تنفض الجماهير الغفيرة من حولهم ، فان رياحا غريبة كانت تعبث بالأصوات فلم يتناه الى سمع الجماهير غير عبارات مبتذلة جوفاء مغايرة لما يفوه بها الخطباء ·

ويحتل الشيطان مكانة فى قلب مملكة الجحيم ، ولا يسمح للمثول فى حضرته الا للبارزين من الملعونين · وعند الاقتراب من الشيطان تبرز الأمور البعيدة الاحتمال وتزداد شيئا فشيئا فالشيطان نفسه هو الاستحالة التامة التى يتصورها أى عقل ، فهو العدم المجرد ، اللاوجود التام ، مع أنه يتغير باستمرار ·

وبفضل مالى من شهرة فلسفية تقدمت صفوف من التقوا « بأمير الظلام » لقد قرأت عن الشيطان أنه روح السلبية ، لكن ما أن دلفت الى

حضرته حتى أدركت فى فزع أن للشيطان جسما سلبيا وله عقل سلبى على حد سواه · أما جسم الشيطان فهو فى الواقع ، فراغ مجرد تام خال لا من ذرات المادة فحسب بل من ذرات الضوء أيضا · وما يبقى على فراغه هى ذروة الاستحالة · فكلما دنت ذرة من سـطحه الخارجى ، اصـطدمت بالصدفة بذرة أخرى تحول دون تغلغلها فى منطقة الفراغ · وبما أن الضوء لا ينفذ الى هذه المنطقة أبدا فانها حالكة السـواد ، وهى فى سـوادها لا تقارن بالأشياء التى نخلع عليها هذا اللفظ دون تدقيق ، اذ هى سواد مطلق تام لا نهائى ، فهى ذات شكل ، والشكل الذى اعتدنا أن ننسبه الى الشيطان عبارة عن قرون وأظلاف وذيل وما شابه ذلك ، أما بقية الجحيم فيحف بها لهيب معتم حيث يقف الشـيطان فى أبهة رهيبة · ولا يثبت الشيطان فى مكانه ، فالفراغ الذى يتكون منه دائب الحركة ، وان ضايقه أمر من الأمور نشر الرعب من ذنب مطوى أشبه ما يكون بقطة هائجة · وينطلق فى بعض الأحيان ليغزو مناطق جديدة ، وقبل أن ينطلق يسربل نفسه بعدة حربية بيضاء براقة تخفى تماما ما بداخلها من عدم ، ولا تظل مكشوفة سوى عينيه تنطلق منهما أشعة العدم الثاقبة باحثة عن فريسـة جديدة · وأينما وقعت عيناه على السلبية ، ووجدت التحريم ، وحيثما اكتشفت مذهب اللاعمل ، تغلغلت فى كيان أولئك الذين هم على استعداد لقبول الشيطان · وكل سلبيه انما تنبثق منه ثم تعود بحصيلة من خيبة الآمال المسلوبة فتصبح هذه الخيبة جزءا منه تزيد منحجمه علىنحو يهدد معه بأن يملأ الفراغ بأسره وكل اخلاقى تتكون أخلاقياته من «الأمر والنهى» وكل جبـان « يغلب التردد على العـزم » ، وكل طاغية يجبر رعاياه على أن يعيشوا فى هلع ، كل هؤلاء يصـبحون بعد مدة من الزمن جزءا من الشـــيطان ·

وتحيط به جماعة من الفلاسفة المتزلفين الذين استعاضوا عن مذهب الوهية الشيطان بمذهب وحدة الوجود ، ويعتقد هؤلاء أن الوجود ظاهرى فحسب ، أما اللاوجود فهو الحقيقة الخالصة الوحيدة ، ويحدوهم الأمل فى أنهم سيخلفون على اللاوجود مظهرا محددا فى الوقت المناسب ، اذ فى تلك اللحظة سوف نجد أن ما نعتقده وجودا فى الوقت الراهن لا يزيد فى حقيقته عن كونه جزءا منفصلا عن الجوهر الشيطانى · ورغم ما أظهره علماء الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) هؤلاء من حذق ومهارة بالغين ، الا أننى لم أسلم بوجهة نظرهم · فقد اعتدت ، وأنا على الأرض ، أن أناهض كل سلطة طاغية مستبدة ، ولازمتنى هذه العادة فى الجحيم ، ومن ثم رحت أحاور المتحذلقين فى الميتافيزيقا وأجادلهم ·

واعترضت قائلا : « ان ما تبدونه يتسم بالسخف ، فأنتم تعلنون أن اللاوجود هو الحقيقة الوحيدة وتزعمون أن هذه الحفرة السوداء التى تعبدونها موجودة ، وتحاولون اقناعى بأن اللاوجود موجود ، لكن فى هذا تناقضا ، ومهما اشتد لهب الجحيم فاننى لن أحط من قدر تفكيرى المنطقى الى الحد الذى أقبل معه هذا التناقض » ·

وهنا أمسك رئيس المتحذلقين بخيط الجدل وراح يقول : « انك تمر يا صديقى على الحقائق مر الكرام ، أأنت تنكر أن اللاموجود موجــود ؟ لكن ما هذا الذى تنكر وجوده ؟ فان كان اللاموجود عدما فان أى رأى يتعلق به هراء · وهذا ما ينطبق على قولك انه غير موجود · أخشى أنك لا تبدى اهتماما كبيرا بالتحليل المنطقى للعبارات الذى كان ينبغى أن تتلقنه وأنت فتى يافع ، الا تعلم أن لكل جملة مضمونا ، فان كان المضمون عدما باتت الجملة هراء ؟ وهكذا حين تزعم ، بحماس بالغ ، أن الشــيطان ــ اللاموجود ــ غير موجود ، فانك ببراءة تناقض نفسك » ·

فأجبت : « لا مراء فى أنك فى هذا المكان منذ زمن ، وأنك مازلت تتمسك بنظريات قديمة · من الثرثرة أن تقول ان للعبارات مضمونا ، بيد أن هذا اللون من الحديث قد عفى عليه الزمن وحينما أقول ان الشيطان، الذى لا وجود له ، غير موجود فانى لا أذكر الشيطان ولا اللاوجود بل اللفظ « شيطان » واللفظ « لا وجود » فحسب ، لقد كشفت لى مغالطاتكم حقيقة كبرى ، وهى أن اللفظ « لا » لا داعى له ، ومن ثم فلن استخدم هذا اللفظ » ·

وعندئذ انفجر علماء الميتافيزيقا المجتمعون ضاحكين ، وحين هدأت موجة الضحك قالوا : « أصغوا كيف يناقض هذا الانسان نفسه وأنصتوا الى وصيته العظمى بتجنب النفى ، والى تأكيده بأنه لن يستخدم كلمة « لا » ··

وبرغم الاساءة التى وجهت الى ، كبحت جماح نفسى ، ولما كنت أحمل فى جيبى قاموسا رحت أحذف منه كل ما يعنى النفى ، وقلت : « لن يكون حديثى الا بالكلمات الباقية ، التى بها سوف أتمكن من وصف كل شىء فى الكون ، وستكون أوصاف متعددة ، غير أنها ستكون عن أشياء أخرى غير الشيطان ، لقد ساد الشيطان طويلا هذا العالم الجهنمى ·· وكان درعه الوضاء يبعث الرعب فى النفوس ولكن لم يكن تحت هذا الدرع سوى عادة لغوية ذميمة وتجنب اللفظ « لا » يضع نهاية لامبراطوريته ·

ولما احتدم الجدل ، لوح الشيطان بذنبه فى هياج متزايد ، فانبعثت من عينيه الغائرتين أشعة الظلام المرعبة ، لكن ما أن فضحت أمره ووصفته بأنه عادة لغوية سيئة حتى حدث انفجار مروع واندفع الهـواء من كل حدب وصوب ، واختفى الشـــكل المرعب · وانجلى هواء الجحيم المعتم بسبب أشعة العدم الكثيفة كما لو كان يفعل السحر · وتبين أن مالاح كأنهم قردة الى جانب الآلات الكاتبة ليسوا سوى نقاد فى ميدان الأدب وراحت المراجل تغلى وورق اللعب يختلط ، كما أخذ الهواء العليل يهب من النوافذ وعاد لشرائح اللحم مذاقها الطبيعى · وفى غمرة الاحساس بالحرية الرائعة استيقظت من نومى ، ورأيت أن حلمى ـ وان كان يرتدى قناع الهذيان ـ الا أنه ينطوى على حكمة بالغة · ومن تلك اللحظة خفت وطأة الحمى · أما الهذيان ، كما قد يبدو لك ، فقد ظل مستمرا ·

حلم الوجودى

انتصار الوجود

ملأت شهرة « بورفيراجلانتين » الشاعر الفيلسوف العظيم ، الآفاق بمؤلفاته العميقة الرائعة المتعددة ولاسيما بقصيدته الخالدة « أنشودة العدم » .

في البيداء المترامية
حيث تمتد الرمال الى مالا نهاية
أبحث
أبحث عن الطريق المفقود
الطريق الذى لا أهتدى اليه
وتحوم روحى هنا وهناك
فى كل اتجاه وفج
تتلمس فلا تصادف شيئا
وسط هذا الفضاء العريض
هذا الفضاء اللانهائى
هذه الرمال ..
هذه الرمال المتوهجة المزهقة للأنفاس
هذه الرمال الآسنة المملة
التى تمتد فى غير ماحد
الى الأفق البعيد ..

ويترامى الى أخيرا

صـــــوت

صـــوت مدو عذب معـــا

يهتف

أتظن أنك روح ضائعة

تحسب أنك روح ..

لكنك واهم ـ فلست بروح

لا ولا أنت ضائع

فأنت عـــــدم

ولا وجـود لك .

رغم ذيوع هذه القصيدة وانتشارها فان نفرا قليلا يعرف الظروف التى حملت على نظمها وما أسـفرت عنه من أحداث .

وأرى لزاما على أن أسرد هذه الظروف وتلك الأحداث رغم ما تنطوى عليه من ألم وضنى .

كان « بورفير » ، منذ فجر شبابه مرهف الاحســاس ويعانى من ألم ممض ، فلقد استبد به الخوف من أنه قد لا يكون موجودا ، وكان كلمـا تطلع الى المرآة ساورته الشـكوك فى ألا تظهر صـورته ، فابتدع لنفسـه فلسفة من شأنها ، كما كان يأمل ، أن تذهب بهذا الخـوف وتبدد تلك الشكوك ، لكن هذه الفلسفة كانت تخفق ، من حين لآخر فى أن تشـــفى غليله ، واستطاع ، بوجه عام ، أن يوارى شـكوكه ، لكن أنشـــودة العدم التى تعبر عن رؤيا مفاجئة محطمة ، تكشف عن أن النجاح لم يحالفه . فعقد العزم على أن يثبت وجوده بأى ثمن وبصـورة قاطعة تخمد الصوت الذى يعذبه .

وبدوام تأمل النفس والملاحظة الدقيقة اقتنع فى النهاية بأن ما من شىء حقيقى كالألم ، وأن بالألم وحده يتحقق الوجود . فراح ينشـــــد الألم فى ربوع الأرض قاطبة بالقيام برحلة الحزن والأســى ، حتى لقــد قضى شتاء فى القطب الجنوبى منعزلا وحيدا حيث كان الليل لا ينتهى يوحى بأحلام مزعجة عما يحمله المستقبل من كآبة وغم .

وعرض نفسه لألوان العذاب فى ألمانيا زاعما أنه يهودى ، لكن فى عين اللحظة التى بلغ فيها عذابه حدا لا يحتمل ، اقتحم « غراب يو[1] معسكر التعذيب وحطم الصمت الرهيب معلنا بصوت حزين : « انك لا تتألم ، انك عدم ، ولا وجود لك » .

ورحل الى روسيا حيث ادعى أنه جاسوس يعمل لحساب الحكومة البريطانية ، فقضى شتاء طويلا يقطع الأشجار بجوار البحر الأبيض . وكان الجوع والتعب والبرد تنفذ الى أعماقه يوما فيوما ، وتراءى له أنه لو استمر هكذا طويلا لأحس بوجوده ولاريب ، لكن هذا لم يحدث ففى اليوم الأخير من أيام الشتاء حين بدأ الجليد يذوب ، عاد الطائر الرهيب يردد كلمات الفشل عينها .

وطفق يفكر « لعل الآلام التى أنشدها هينة بسيطة ، ولو أردت أن أكون بائسا حقا لتحتم أن أمزج أحزانى بعنصر الذلة والهوان » .

وتحقيقا لهذا الهدف ، انطلق الى الصين حيث وقع فى غرام عنيف مع فتاة صينية بارعة الجمال تحتل مكانة مرموقة فى لجان الحزب الشيوعى . وراح يلفق الوثائق ويزورها حتى أدينت الفتاة كجاسوسة للحكومة البريطانية ، وتعرضت فى حضرته لألوان من التعذيب المبرح . وحين بلغ العذاب حد الموت قال لنفسه : « الآن قد تألمت حقا ، فقد أحببتها لآخر لحظة حبا جما ، وحطمتها بخيانتى المشوبة بالجبن والنذالة ، ولامراء فى أن هذا يبعث فى نفسى من الألم والضنى أقصى ما تتحمله الطاقة البشرية » . ولم تكن هذه هى الحقيقة ، وبرهبة عنيفة أفقدته القدرة على الحركة ، راح يرقب طائر القدر يعود ليحلق فى الأفق وينطلق ثانية بصوت الشاعر الخالد الذى قدم الطائر الى الوسط الأدبى فى باريس .

وأخذ يعبر عن يأسه بمشقة بالغة بينما الطائر لا يزال يحلق فى السماء قائلا : « أيها الغراب ، هل هناك فى هذا العالم الفسيح بأسره ما يحملك على الاعتراف بأنى موجود ؟ » . فلم يفه الغراب الا بكلمة « عليك بالبحث » ثم اختفى عن الأنظار .

---

(١) الاشارة هنا الى الروائى والشاعر الأمريكى الشهير « ادجار آلان يو » الذى تتميز مؤلفاته بالخيالات الغريبة ومنها صورة الغراب المشار اليه هنا (المراجع) .

ولايمكن الزعم بأن « بورفير » قد ترك بحثه عن الألم يستولى على كل نشاطه ، لكنه ظل دائما الشاعر الفيلسوف يحظى بالاعجاب والتقدير فى كل مكان ولاسيما فى أكثر الدوائر سرية · وعند عودته من الصين دعى لحضور مؤتمر للفلسفة عقد فى باريس ، كان هدفه الأسمى تكريمه وتبجيله ، وحضر المدعوون ماخلا الرئيس ، وبينما كان يتساءل عن موعد قدوم الرئيس أقبل الغراب واحتل مقعد الشرف · واستدار ناحية « بورفير » وعدل من عباراته المألوفة وصاح بصوت مجلجل تناهى الى سمع أعضاء المؤتمر جميعا : « لا وجود لفلسفتك ، فهى عدم » ·· وما أن تفوه بهذه الكلمات حتى غمرت كل كيان الفيلسوف موجة من الرعب والكرب لم تدانها تجربة سابقة وسقط مغشيا عليه ، وحين عاد الى رشده ، سمع الطائر يردد ما كان يتوق الى سماعه : « أخيرا أنت تتألم · أخيرا أنت موجود ! » ·

واستيقظ فاذا هو حلم ·

لكنه لم يعد بعد اليوم يتحدث عن الفلسفة أو يكتبها ·

حلم عالم الرياضة

حلم بروفسير سكوير بونت

شـــرح تمهيــدى

عندما كان صـديقى ، المأسـوف عليه « بروفسور سكوير بونت » ، عالم الرياضة الذائع الصيت ، على قيد الحياة ، كان صـديقا لسـير « آرثر ادنجتون » ومن المعجبين به ٠ لكن هناك نقطة واحدة فى نظريات سير آرثر كانت تبعث دائما حيرة وقلقا فى نفس بروفسـور سكوير بونت، وهى القوى الكونية الخفية التى كان سير آرثر ينسبها الى الرقم ١٣٧ ، ولو كان ما يفترض أنه يميز هذا الرقم خواص حسـابية فحسب لهـان الأمر ولما أثيرت أية مشكلة ، بيد أن هذا الرقم قد أظهر فى ميدان العلوم الطبيعية قوة لا تختلف عن تلك التى نسبت الى الرقم ٦٦٦ ، وبات مؤكدا أن ما دار مع سـير آرثر من محادثات كان له أثره على حلم بروفسـور سكوير بونت ٠

بعد أن نال التعب من عـالم الرياضـة اثر يوم حافل بدراسـة نظريات « فيثاغورس » غالبه النعاس فى مقعده ، فراودت أفكاره النائمة مسرحية غريبة لم تكن الأرقام فيها مجموعات جامدة ، كما كان يظنها قبلا ، بل كائنات تنبض بالحياة ، وهبت جميع العواطف التى كان يألفها فى رفقائه علماء الرياضة ٠ ورأى فى حلمه أنه يقف وسط دوائر متحدة المركز لا نهاية لهـا ٠ فالدائرة الأولى تضم الأعـداد من ١ الى ١٠ ، والثانية من ١١ الى ١٠٠ ، والثالثة من ١٠١ الى ١٠٠٠ وهـكذا الى مالا نهاية ، فوق سـطح غير متناه لسهل لا حدود له ٠ كانت الأعـداد الفردية مذكرة والزوجية مؤنثة ، وكان يقف الى جواره فى الوسط مقنع الوجه «بى» (Pi) رئيس التشريفات الذى كان معروفا عنه أنه ما من أحد يرى وجهه ثم يظل بعد ذلك على قيد الحياة ٠ لكن عينيه الثاقبتين كانتا تطلان من خلف النقاب تتسـمان بالغموض والعنف والصـفاء ٠

وكان لكل رقم اسمه المنقوش بوضوح فوق زيه ، اذ كان لأنواع الأرقام المتباينة أزياء مميـزة وأشـكال مختلفة ، فكانت المربعـات تربيعـات ، والمكعبات زهر النرد ، والأعداد الصحيحة كرات ، والأعداد الأصـلية أسطوانات كاملة ، كما كان للأعداد الكاملة تيجان • والى جانب تنوع أشكالهاكانت الأرقام أيضا متعددة الألوان • فكانت الوان الحلقات السبع الأولى المتحدة المركز هى ألوان قوس قزح السبعة ما خلا ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ الخ التى كانت بيضـــاء اللون ، بينمـا كانت ١٣ ، ٦٦٦ سوداويين واذا كان أحد الأرقام ينتمى الى فئتين من هذه الفئات، فمثلا اذا كان مثل الرقم ١٠٠٠ مستديرا ومكعبا فى آن واحد فانه يرتدى زيا أكثر تكريما ، وهذا الزى هو ذلك الذى يقل وجوده بين أعداد المليون الأول •

وأخذت الأعداد تتراقص حول بروفسـور سكوير بونت وبين «بـى» فى رقصة باليه معقدة تضم أعدادا غفيرة من الراقصين ، ونسجت المربعات والمكعبـات والأعداد الاصلية والهرمية والصحيحة والكاملة سلاسل متشابكة فى رقصـة لا نهاية لها يقف فيهـا المرء مذهولا مندهشـا • وانطلقت ترقص وهى تردد أغنية تشيد بعظمتها :

نحن الأعداد المحدودة

نشكل مادة هذا الكون

ونحيل الأرض منبسطة

مهما الاضطراب أعاقنا

ونبجل أستاذنا فيثاغورس

ونسخر من كل جنية أو جحش

وكنبع للحكمة لا نسـلم

بساحرة « أندرو » ولا بحمار « بلعام »

ورحنا نلف ونلف نرقص « الباليه »

أشبه بشهب رآها « هاليه »

ونعمنا بتكريم « أفلاطون » الخالد

من لم يفقه ممن لحقوه أحـد

ونسـير حسب القواعد

دون هـوادة

فنحن الأعداد المحدودة

وبايماءة من « بـى » ، توقف الرقص وقدمت الأعداد للبروفسـور سكوير بونت الواحد تلو الآخر ، وراح كل عدد يلقى خطابا موجزا يعرض فيه مزاياه ٠

١ ـ أنا والد الجميع ، وأب لسـلالة غير محدودة ، ولولاى لمـا وجد أحـد ٠

٢ ـ لا تكن هكذا متغطرسـا ، أنت تعلم أن الواحد لا يزيد الا باثنين ٠

٣ ـ أنا الرقم « المثلث » ، رقم حكماء الشـرق ، والنجوم فى حـزام أوريون ، وآلهة الرومان التى تقرر مصـير الانسـان ، والحسـان الثلاث ٠

٤ ـ لولاى لمـا وجد المربع وما كانت فى العالم أمانة ٠ فأنا حامى حمى قانون الأخلاق ٠

٥ ـ أنا عدد أصابع اليد ، وأصنع أشـكالا مخمسة الزوايا والأضلاع، ولولاى لمـا كان للأشكال ذات الاثنى عشـر وجها وجود ، ولا يخفى على أحد أن الكون ذو اثنى عشر وجها منتظما ، وهكذا لولاى ، ما وجد الكون ٠

٦ ـ أنا العدد الكامل ، وأعلم أن لى منافسين محدثين اذ يزعم ٢٨ و ٤٩٦ أنهما صنوان لى ٠ لكنهما فى ميزان المقـارنة يبرهنان على أنهما أقل شأنا منى بكثير ٠

٧ ـ أنا العدد المقدس : عدد أيام الأسـبوع وعدد بنات الأطلس السبع ، وعدد فروع الشمعدان السـبعة ، وعدد الكنائس فى آسـيا ، وعدد الكواكب ٠ فأنا لا أعترف بذلك المجدف « جاليليو » ٠

٨ ـ أنا أول المكعبات ، باستثناء العدد واحد القديم المسكين الذى لم تعد تقوم له الآن قائمة ٠

٩ ـ أنا عدد ربات الشعر والأدب ، وعلى يتوقف سحر الحياة وجمالها٠

١٠ ــ حرى بك أيتها الوحدات البائسة أن تفخرى ، أما أنا فأب فى العماد لهذا الجيش العرمرم من خلفى ٠ وكل فرد مدين لى باسمه ، ولولاى لما كانت سوى فوضى ، ولما انتظمت فى ترتيب هرمى ٠

وهنا ضاق عالم الرياضة زرعا بذلك كله فالتفت نحو « بى » قائلا : « أترى أن ثمة داعيا لبقية التقديم ؟ » وعندئذ دوت صيحة مجلجلة :

١١ ــ صرخ قائلا : « أما أنا فكنت عدد أحبار المسيح بعد ارتداد يهوذا » ٠

١٢ ــ صاح قائلا : « لقد كنت سيد الأعداد فى أيام البابليين ــ بل كنت أفضل بكثير من العدد البائس ١٠ الذى يدين بمركزه الى مصادفة بيولوجية وليس الى أى تفوق فى عالم الحساب :

١٣ ــ زمجر قائلا : « أنا سيد الحظ العاثر ، فاذا عاملتنى بعنف نلت جزاءك من جراء ذلك » ٠

وحدثت ضجة عنيفة حملت عالم الرياضة على أن يغطى أذنيه بكلتا يديه واستدار نحو « بى » ورماه بنظرة تنم عن توسل واستعطاف ٠ فلوح « بى » بعصا سائقه القصيرة ونادى بصوت كالرعد : « صه »، والا بات جميعكم غير قابل للقياس فامتقع لونهم جميعا واذعنوا للأمر ٠

ولاحظ البروفسور أثناء فترة الرقص أن بين الأعداد الأصلية عدد ١٣٧ الذى بدأ متمردا غير قانع بمكانه بين الأرقام الأخرى ، وحاول مرارا أن يسبق ١ ، ٢ ، ٣ وأظهر من التمرد ماهدد بتدمير نظام الباليه ٠ أما الذى أثار دهشة بروفسور سكويربونت أكثر من هذا المسلك الشاذ ، فهو طيف فارس من فرسان الملك آرثر ظل يهمس فى أذن ١٣٧ : « تقدم ! تقدم ! لتبلغ القمة ! » وبالرغم من صعوبة التعرف على شخصية الطيف فان البروفسور تمكن من أن يتبين ملامح صديقه سير آرثر غير الواضحة ، مما حدا به الى العطف على الرقم ١٣٧ رغم ما يكنه « بى » له من عداء دفعه الى قمع هذا الرقم المتمرد ٠

وأخيرا صاح الرقم ١٣٧ قائلا : « ان البيروقراطية الضارية هنا لمشهد مقيت ، وما أبتغيه هو حرية الفرد » واهتز قناع « بى » من شدة الغضب ، لكن البروفسير تشفع له قائلا : « لا تقس عليه ٠ ألا ترى أن قرينا يتملكه ويوجهه ؟ اننى أعرف هذا القرين فى الحياة ومن ثم يمكن أن أجزم بأنه هو الذى يوصى بما يظهره الرقم ١٣٧ من مشاعر مناهضة للحكومة ٠ ومن جانبى أود الاستماع لرأى ١٣٧ » ٠

فما كان من « بـى » الا أن أذعن فى شىء من التردد وقال بروفسور سكوير بونت : « ألا حدثتنى يا رقم « ١٣٧ » عن سر ثورتك ؟ هل يحركك الاحتجاج على عدم المساواة ؟ أم كل ما فى الأمر هو أن « الأنا » بداخلك قـد تضخم بسبب مايكيله لك سـير آرثر من اطراء ؟ أم أنك ترفض على أساس أيديولوجية عميقة ، الميتافيزيقا التى تشربها رفقاؤك من أفلاطون؟ لاداعى للخوف من مصارحتى بالحقيقة ، فسـوف أوفق بينك وبين «بـى» الذى أعرف عنه ، على الاقل ، قدر مايعرف عن نفسه » ٠

وهنا انفجر يقول مضطربا : « لقد أصبت كبد الحقيقة ، فأنا لا أطيق ميتافيزقيتهم ، وما انفك هؤلاء يزعمون أنهم خالدون ما يوحى به تصرفهم منذ أمد بعيد وهو أنهم لا يؤمنون بشىء من هذا القبيل ٠ لقد استبان لنا جميعا أن سـماء أفلاطون طابعها البلادة والكآبة ٠ وأدركنا أنه من سخرية القدر أن تحكم عالما معقولا ، ومنذ أن هبطنا من السماء السابعة أضحت عواطفنا لا تختلف عن عواطفكم ٠ وكل عدد فردى يحب العدد الزوجى المصاحب له ، كما تعطف الأعداد الزوجية على الأعداد الفردية وان بدت لها جد غريبة ٠ لقد أضحت امبراطوريتنا جزءا من هذا العالم وحين ينفجر العالم سوف تنفجر معه » ٠

ورأى برفسور سكوير بونت نفسه متفقا مع العدد ١٣٧ ، بينما حسبه الآخرون ، ومن بينهم « بـى » ، مجدفا ، وثاروا عليه وعلى البروفسور ٠ واندفع الجيش العرمرم الممتد فى كل اتجاه وفج على نحو لا تبلغه العين ، صوب البروفسور فى ثورة عارمة ، واستبد به الرعب هنيهة ما لبث بعدها أن تمالك نفسه ، وبعد أن اسـترد حكمته فجأة صرخ بصوت جهورى : « ابتعدوا عنى ، فما أنتم سـوى وسائل رمزية ملائمة » ٠

وبصرخة مجلجلة انفضت الصفوف الضخمة بأسـرها واختفت فى سحابة ٠ ولما استيقظ سمع البروفسور نفسه يقول : « هـذا هو مصـير أفلاطون » ٠

حلم ستالين

(كتب قبل موت ستالين)

الحب يقهر كل شيء

بعد رشفات كبيرة من الفودكا الممزوجة بالفلفل الأحمر ، أخذت ستالين سنة من النوم وهو جالس فى مقعده ، وبأصابعهم فوق شفاههم راح مولوتوف ، ومالينكوف ، وبيريا ، يحذرون الخدم المتطفلين من اقلاق راحة الرجل العظيم · ورأى ستالين – وهم يحرسونه – فى غفوته الحلم التالى :

لقد خاض غمار الحرب العالمية الثالثة وخسرها ، ووقع أسيرا فى أيدى الحلفاء الغربيين · ولما كانت محاكمات تورمبرج قد أسفرت عن عطف على النازيين ، قرر الحلفاء فى هذه المرة ، أن ينهجوا نهجا مغايرا ، وسلم ستالين الى لجنة تضم البارزين فى « طائفة الكويكرز*» الذين راحوا يؤكدون أن هذا الرجل نفسه يمكن حمله ، بقوة المحبة ، على التوبة والحياة كمواطن معتدل رقيق الفؤاد ·

وقرر أعضاء اللجنة غلق نوافذ غرفته حتى الانتهاء من مهمتهم الروحية خشية أن يأتى عملا طابعه التهور والاندفاع ، والحيلولة دون أن تقع يداه على مدية قد يعتدى بها ، فى نوبة من السخط والغضب ، على أولئك المنهمكين فى تهذيبه · لقد آووه فى غرفتين مريحتين من منزل ريفى عتيق، أوصدت أبوابه ما خلا ساعة كل يوم ، يصحبه خلالها أربعة من الكويكرز المفتولى العضلات فى نزهة قصيرة تستهدف تلقينه الاعجاب بجمال الطبيعة والاستمتاع بشقشقة العصافير · أما بقية اليوم فكان يقضيه فى القراءة والكتابة وان كانوا قد منعوا عنه أى كتاب أدبى من شأنه أن يثير العواطف ويلهبها ، ولم يزود الا بالكتاب المقدس وقصة «رحلة الحاج»

(★) Quekers طائفة دينية أسسها جورج فوكس حوالى سنة ١٦٥٠ ويسمى أعضاؤها أنفسهم بالأصحاب (المترجم) ·

و « كوخ العم توم » الى جانب بعض روايات « شارلوت ٠ م ٠ يونج » كوسيلة للعلاج فحسب ، ولم يكن يسمح له بالتدخين أو احتساء الخمر أو تناول الفلفل الأحمر ٠ أما الكاكاو فكان بوسعه أن يحصل عليه فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل ، اذ كان البارزون من حراسه متعهدين لتوريد هذا الشراب المفيد الذى لا يسبب للمرء ضررا ، كما روعى الاعتدال فيما يقدم له من الشاى والقهوة ، فلا يكونان بالقدر الوافر أو فى الوقت غير المناسب فيحرماه من نوم هادىء ٠

كان الرجال المتزمتون ممن وكلت اليهم مهمة رعاية ستالين يقضون ساعة فى الصباح ومثلها فى المساء ، يفسرون له مبادىء الحب المسيحى وما يمكن أن ينعم به من سعادة ، برغم كل ما حدث ، لو أنه اعترف بحكمتهم ليس الا ، أما المحاجة معه فقد اضطلع بها رجال ثلاثة يعدون أحكم من كان يؤمل فى قدرتهم على اقناعه بالحقيقة وعونه على أن يرى نور الحق الوضاح ، وهم السادة : طوبياس توجود ، وصموئيل سويت ، وولبراهام ويلدون ٠

وكان ستالين قد تعرف على أولئك الرجال أيام مجده حين قاموا برحلة الى موسكو قبل أن تندلع نيران الحرب العالمية الثالثة بفترة وجيزة ليرجوه أن يقلع عن خططه ويحملوه على الاقتناع بخطل أساليبه ، وطفقوا يحدثونه عن الصالح العام والحب المسيحى ويرددون ، بعبارات طلية أخاذة ، ما تجلبه الوداعة على النفس من بهجة وحبور ، كما راحوا يؤكدون أن السعادة تكمن فى أن تكون محبوبا أكثر منها فى أن تبدو مرهوب الجانب ٠ وأنصت لهم برهة وقد تذرع بصبر هو وليد الدهشة والاستغراب ، مالبث بعده أن انفجر فيهم وتساءل بصوت كالرعد : «« ماذا تعرفون ، أيها النبلاء ، عن مباهج الحياة ؟ ما من أحد منكم يفقه شيئا يذكر عن نشوة السيطرة على أمة بأسرها بنشر الرعب والهلع بينما تدرك أن الجميع يبغون موتك ، لكن أحدا لا يجرؤ على التعرض لك، كما تعلم أن أعداءك فى ربوع الأرض قاطبة غارقون فى محاولات لاطائل من ورائها لسبرغور أفكارك الخفية ، وأنت على يقين من أن سلطانك سيبقى بعد الاطاحة ليس بأعدائك فحسب بل بخلافتك على حد سواء ٠ ان أسلوب الحياة الذى تقدمونه لى أيها النبلاء لا يغرينى ، فارجعوا الى سعيكم الوضيع وراء الربح الذى تخفونه بادعاء التقوى والورع ، واتركونى وشأنى فى اتباع أسلوب للحياة أكثر بطولة » ٠

وعاد الصحاب « الكويكرز » أدراجهم ، وقد باء مسعاهم بالفشل ، فى انتظار فرصة مواتية أفضل • لقد كان يحدوهم الأمل بعد أن سقط ستالين وصار فى قبضتهم ، أن يصير أكثر رضوخا وانصياعا • مما يدعو للعجب أنه كان لا يزال على ما هو عليه صلافة وعنادا ، وكان هؤلاء الصحاب ذوى حنكة واسعة وخبرة فائقة فى العمل مع الأحداث المنحرفين ، واماطة اللثام عما فى نفوسهم من عقد ، وحملهم ، بلباقة ولطف ، على الاعتقاد بأن الأمانة هى خير أسلوب للحياة •

وابتدره « طوبياز توجود » بالقول : ليتك ، ياسيد ستالين ، تكون قد تبينت ما ينطوى عليه أسلوبك فى الحياة ، الذى كنت تتمسك به من قبل ، من عدم حكمة ، لن أذكر شيئا مما جلبته على العالم من دمار وخراب حيث أن ذلك ، كما ستؤكد لى ، سيفقدك صوابك ، لكن تمعن فيما أنزلته بنفسك ، لقد سقطت من أوج مجدك وأضحيت أسيرا مغلوبا على أمره ، وما بقى لك من عزاء انما مرجعه الى أن سجانيك لا يدينون بمبادئك • لقد فارقتك تلك المباهج البشعة التى حدثتنا عنها عندما زرناك أيام مجدك ، ولو تسنى لك تحطيم حاجز الكبرياء وندمت على ما بدر منك وتعلمت أن تجد السعادة فى سعادة الغير ، لأصبح لك هدف فى الحياة وأحسست بالقناعة والرضى فى أيامك الباقية » •

وعندئذ هب ستالين واقفا وصاح قائلا : « اذهب الى الجحيم أيها المنافق الأبله • اننى لا أعى شيئا مما ترددون خلا أنكم فى القمة وأنا تحت رحمتكم ، وأنكم ابتدعتم أسلوبا للازدراء بسوء حظى أشد حقدا وأكثر اذلالا من أى أسلوب اتبعته فى القيام بحركات التطهير » •

فقال السيد : سويت : « كيف تبدو ، يا سيد ستالين ، على هذا النحو من الجور والقسوة ؟ ألا ترى أننا لا نكن لك سوى النوايا الحسنة ؟ ألا تدرك أننا لا نبغى غير خلاص نفسك ، وما يحز فى نفوسنا هو ما غرسته فى أعدائك وأصدقائك على السواء من عنف وبغض ؟ ولا تحدونا أية رغبة فى اذلالك ، ولو تسنى لك أن تقدر العظمة الأرضية على أساس قيمتها الحقيقية فحسب ، لأدركت أن ما نقدمه لك انما هو فكاك من المهانة » •

فصاح ستالين : « هذا ، فى الواقع ، أكثر مما يحتمل ، لما كنت فتى يافعا كنت أتقبل مثل هذا الحديث فى مدرسة القديس جورج ، بيد أن هذا

لا يمكن أن ينصت اليه رجل ناضج · بدون أن يضيق به صدرا ، ليتنى أومن بالجحيم حتى أتطلع الى ذلك اليوم الذى تطيب فيه نفسى برؤية رقتكم وهى تتبدد مع اللهب اللافحة » ·

فقال السيد ويلدون : « بئس ما تقول أيها العزيز ستالين ! أرجوك ألا تستشيط غضبا ، فبالهدوء فحسب تدرك حكمة ما نحاول اظهاره لك»·

وقبل أن يرد ستالين الاهانة تدخل « توجود » ثانية وقال : « اننى واثق من أن رجلا فى مثل ذكائك الخارق لن يظل أعمى عن الحقيقة أبد الدهر ، لكنك فى اللحظة الراهنة بادى الاعياء ، وأرى أن قدحا من الكاكاو المهدىء أفضل مما تحتسيه من الشاى المنبه » ·

وعندئذ لم يعد ستالين قادرا على كبح جماح نفسه وأمسك بابريق الشاى ورمى به رأس توجود · فأخذ السائل الساخن يتدفق من فوق وجهه ، ومع ذلك لم ينبس الا بقوله : « كف عما تفعل يا ستالين ، ليست تلك طريقة للمناقشة » ·

وفى نوبة من الغضب استيقظ ستالين ، وظل ثائرا لحظة صب خلالها جام غضبه على مولوتوف وماليكوف وبيريا ، فارتعدت أوصالهم وامتقعت وجوههم ، لكن ما أن انقشعت سحب النوم حتى تبدد غضبه وراح يستمتع برشفة عميقة من الفودكا المزدوجة بالفلفل الأمر ·

حـلم أيزنهـاور

(كتب فى عام ١٩٥٢ وستالين على قيد الحياة)

ميثاق مكارثى ـ مالينكوف

بعد عامين من تولى أيزنهاور رئاسة الجمهورية أصبح مضطرا الى أن يدرك أن الصلح طريق ذو اتجاه واحد · لقد بذل ما بوسعه فى سبيل ارضاء معارضيه الجمهوريين وخطب ودهم ، ظنا منه ، فى بادىء الأمر ، أنهم سيستجيبون له · لكن شيئا من هذا القبيل لم يبـد وشيكا · وفى احساس بالغ بخيبة الأمل عصفت به الأفكار المزعجة فحرمته النوم ساعات طوالا من ليلة صيف شديدة القيظ · وما أن غفت عيناه فى نوم متقطع حتى انتابه كابوس محطم للنفس كشف خلاله صـــوت من المستقبل عن تاريخ نصف القرن التالى :

من المرفأ الآمن لمطلع القرن الواحد والعشرين يتسنى لنا رؤية مالا يمكن أن نراه بوضوح فى الوقت الراهن وهو : أن عام ١٩٥٣ قد شـهد بداية الاتجاه الجديد الذى غير وجه العالم · كانت ثمة مشكلات معينة لم يدركها آنذاك غير المتبصرين بعواقب الأمور ، من بينها أن الصناعة فى كل دولة متحضرة قد حظيت بالاهتمام البالغ على حساب الزراعة ، مما أدى الى النقص فى موارد العالم الغذائية · ومشكلة أخرى هى التزايد السريع فى سكان الدول المتخلفة الذى جاء نتيجة للتقدم فى ميدانى الطب والصحة · ومشكلة ثالثة هى الفوضى التى كان يخشى حدوثها من انهيار الامبريالية الأوربية · وهذه المشكلات التى كانت عسيرة على أية حال ، قد أصبحت عصيبة على الحل تماما بسبب الصراع القائم بين الشـرق والغرب ففى غضون الأعوام الثمانية بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٥٣ استمرت خطورة هذا الصراع فى التزايد ، ليس بالتطورات السياسية فحسب بل بما أحرز فى ميدان القنابل الهيدروجينية وحرب البكتريا من تقدم مذهل · ولم يتقدم أى الجانبين بحل لهذا الصراع سوى تدعيم كتلته بما يحول دون هجوم الطرف الآخر عليه · غير أن تجربة الماضى قد دلت على أن هذه ليست الوســيلة التى يعلق عليها أمل كبير فى تجنب اندلاع نيران الحـــرب ·

ولم تلح فى الأفق بوادر أمل جديد حتى أقبل عام ١٩٥٣ ، فاعتزل ستالين الحكم ووافته المنية ، ولما تولى مالينكوف مقاليد الأمور خلفا له رأى من الحكمة أن يتميز عهده بانتهاج سياسة جديدة اسما وان كان جانب منها قد اتبع فعلا ، بيد أن خطرين أساسيين كانا يؤرقانه ويبعثان فى نفسه قلقا واضطرابا ، فمن ناحية كان السخط يجتاح روسيا بأسرها ، ومن ناحية أخرى كان يخشى أن تصبح الصين ، عما قريب ، فى قوة روسيا ، وتتحدى ما لها من سلطان على العالم الشيوعى ، ولدفع الخطر الأول لم يكن ثمة مفر من زيادة كبيرة فى انتاج السلع الاستهلاكية الروسية على حساب التسلح · وفى مواجهة الخطر الثانى كان ينبغى الحد من خطر نشوب حرب عالمية ، وكان هذا اجراء حتميا اذا هى ابتغت الحد من سباق التسلح وهى آمنة مطمئنة · وفى هذه الأثناء جاء تغيير الحكومة فى أمريكا بأخرى جمهورية تأكيدا لهذا الاتجاه ، وغاب عن أذهان الكثيرين فى أمريكا وفى غيرها أنه اذا ما نشب صراع بين رئيس الجمهورية « والكونجرس » قد يجانب النصر « الكونجرس » بفضل ما للمال من قوة ونفوذ ، ولعل هذه الحقيقة مستمدة من تاريخ الصراع الذى دارت رحاه بين الملك والبرلمان فى انجلترا فى غضون القرن السابع عشر · لكن السواد الأعظم من الأمريكيين ينكرون أن شيئا يمكن تعلمه من الماضى أو من دول أجنبية أخرى ، وكان الكثيرون ممن أيدوا الرئيس أيزنهاور فى الانتخابات يرون أنه لو فاز بالرئاسة لسادت سياسته ، وغاب عن بالهم أن اختيارهم له انما كان يعنى منح السيطرة على الكونجرس « لتافت » و « مكارثى » · وهذان الرجلان ، هما اللذان كانا فى الواقع ، يفرضان سيطرتهما على سياسة الولايات المتحدة فى ظل حكم أيزنهاور · لكن نفوذ مكارثى أخذ يقوى رويدا رويدا فى الوقت الذى كان يستبد فيه بالطبقة المتوسطة من الشعب خوف من الشيوعية وفزع من ضريبة الدخل وعندما يمسك الديمقراطيون بأعنة الحكم يعمل هذان الاحساسان فى اتجاهين متضادين ، أما مكارثى فقد اكتشف السبيل الى التوفيق بينهما وراح ينشر أن الشيوعية بيننا هى العدو الحقيقى اللدود ، وأن ما ينفق فى مقاومة الشيوعية فيما بيننا يقل كثيرا عما يتطلبه خوض غمار حرب مع روسيا ، كما أعلن على الأمة بأسرها أنه طالما ظل الأمريكيون مخلصين ومتحدى الصفوف فلن تلحق بهم الهزيمة ، بل ويتبدد ما يحملهم على الخوف من مكايد الاستبداد الأجنبى ومؤامراته · ولو طهرنا بلادنا من العناصر الغادرة لعشنا فى أمان وسلام · ولكى يروى ظمأ الشعب الى مناهضة الشيوعية باتباع هذه

السياسة ، بات لزاما عليه أن يكتشف بصـــفة مستمرة أعداء جددا فى الداخل • ولقد أفلح مكارثى بفضــل ســيطرته على مكتب التحقيقات الفدرالى F.B.I. وبمساعدة شرذمة الشيوعيين السابقين الموالين له ، فى نشر الرعب من وجود خيانة فى الداخل ، الى الحد الذى كان يعتبر معه كل عضو بارز من أعضـــاء الحزب الديمقراطى خائنا ، ماخلا فئة ضئيلة تضم رجالا أمثال سناتور « ماكاران » • وتحت ستار هذه السياسة أمكن توفير مبالغ طائلة من المال كانت تنفق فى عهد ترومان ، فى مساعدة دول أجنبية • كما اتخذ من انتشار الشيوعية فى فرنسا وايطاليا ذريعة لتأكيد أنه لا جدوى من وراء انفاق المال على مثل هذه الدول التى لا يمكن الاعتماد عليها •

ووجد أيزنهاور نفسه عاجزا عن التصدى لهذه السياسة بالرغم من كراهيته لها ، لقد كان يأمل فى تدعيم حلف شمال الاطلنطى والتمكين من الدفاع عن أوربا الغربية ضد أى هجوم شيوعى ، بيد أن الدفاع عن هذه المنطقة كان باهظ النفقات لانها تضم عددا كبيرا من الشيوعيين وعددا أكبر من الاشتراكيين الذين لا يقلون عن الشيوعيين عرضة لكراهية الأمريكيين ، ذلك لأن أوربا لم تكن تعرب عن امتنانها ، ولم تدرك ما هى عليه من ضعف ووهن ، بل راحت تطالب فى ضجيج دائب بخفض التعريفة الجمركية الأمريكية ، كما أنها لم تخف كراهيتها لشيانج كاى شـــيك ، ولهذه الأســباب مجتمعة كانت الهزيمة حليفا مـلازما لأيزنهـاور فى الكونجرس •

وتمخضت سياسة مكارثى عن نتيجتين : فقد أدت ، من ناحية ، الى تضاؤل مناطق الصراع الخارجى وتخفيف حدة التوتر فى العلاقات مع روسيا ، وأوضحت من الناحية الأخرى ، أنه لا نجاة لأى مواطن يتخذ من مكارثى موقف المعارضة • وفى انتخابات الرئاسة لعام ١٩٥٦ فاز مكارثى بغالبية ساحقة فاقت ما حققه روزفلت منذ عشرين عاما •

ولقد مكن هذا النجاح الساحق مكارثى من أن يتوج أعماله بمعاهدة « مكارثى مالينكوف » ، التى انقسم العالم بموجبها بين هاتين الدولتين الكبيرتين ، فخضعت آسيا عن بكرة أبيها مع الجزء الواقع شرقى الألب من أوربا لسيطرة روســيا ، بينما استولت الولايات المتحدة على نصـف الكرة الغربى بأسره الى جانب افريقيا واستراليا وشطر أوربا الواقع غرب الألب • واتفق الجانبان على حظر التجارة بينهما مهما يكن نوعها، كما منعا أى اتصــال باستثناء الاجتماعات الدبلوماســية النادرة التى

لامناص من عقدها والتى تقرر أن تعقد فى « سبتزبرجن » · ورأى الطرفان أن تكون الصناعة خارج الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فى أضيق نطاق لها عن طريق التحكم فى المواد الخام وباتخاذ اجراءات أشد عنفا اذا ما اقتضت الضرورة ذلك · وأن تحتفظ أوربا الغربية باستقلالها الصورى ، وبوسع دولها ، اذا ما شاءت ، أن تبقى على نظام عالمها القديم الذى يتمثل فى الحكومة الحزبية وفى حرية التعبير والصحافة الحرة لكن التجول فى ربوع الولايات المتحدة كان محظورا عليهم حتى لا يعيثوا فسادا بين المواطنين الأفاضل بما لهم من بدع عفا عليها الزمن ·

وأخذت أمريكا عن النظام الروسى بعض سماته ، فلم يسمح الا بوجود حزب واحد هو الحزب الجمهورى ، وفرضت على الصحافة والأدب رقابة مشددة ، وأصبح ينظر الى النقد السياسى بشتى صوره على أنه نشاط هدام ، ومن ثم تعرض الناقد لجميع ألوان العقاب ، وأضحى هدف التعليم الأساسى هو تلقين المبادىء السياسية · ويقينا أنه وجد من كان يحس بالندم على هذه التغييرات ، لكن ما ينبغى التسليم به هو أنه ، بتوقيع هذه المعاهدة ، قد أمكن تجنب خطر نشوب حرب عالمية وخفض الأسلحة الى حد كبير فى كل من أمريكا وروسيا ·

ولقد اكتنفت مفاوضات الميثاق بعض الصعاب ، منها معضلة اليابان ، ذلك أن أمريكا كانت قد أعادت تسليح اليابان أملا فى أن تصبح حليفا لها ضد روسيا ، أما اليوم ففى ظل سيطرة روسيا وأمريكا المشتركة على العالم لم يعد السماح بوجود دولة قوية مستقلة أمرا ممكنا ، ومن ثم أجبرت اليابان على التجرد من الأسلحة ، وانضمت جزيرة هوكايدو الى روسيا بينما انحازت البقية الباقية من اليابان الى جانب أمريكا ·

وانطوت المعاهدة على شروط حول مسألة الدعاية · فاتفق الجانبان على حظر أية دعاية مناهضة لأمريكا فى روسيا وأى نشاط معاد لروسيا فى أمريكا ، ولا يسمح لأحد فى روسيا بأن يبحث فى الحقيقة التاريخية القائلة ان بطرس الأكبر كان أمريكيا ولا يسمح لأحد فى أمريكا بأن يتحقق من أن كولومبوس كان روسيا ، وعلى كل روسى ألا يتعرض لمشكلة اللون فى الولايات الجنوبية ، وأن يتجنب كل أمريكى أية اشارة الى أعمال السخرة فى روسيا · كما كان من واجب كل طرف أن يشيد بانتصارات الطرف الآخر ، وأن يبرز دائما فى المستقبل ، ما ينطوى عليه تحالفهما الخالد من مزايا ·

ولم تلق المعاهدة تأييدا فى أوربا الغربية اذ وضعتها فى مرتبة وضيعة قادتها اليها تلك الحرب الضروس التى خاضت غمارها • ولم يكن أمرا هينا أن تذعن أوربا الغربية لضياع مركزها ، وهى التى ظلت قرونا طويلة تفرض سلطانها السياسى والثقافى على شعوب الأرض قاطبة• وأبدى الكثيرون من الأمريكيين ، مراعاة للتقاليد التى يسلمون بأنها قد ساعدت فى بناء الحضارة الأمريكية ، استعدادا لمعاملة أوربا الغربية باحترام بدا فى ذلك الحين ، على أساس الوضع القائم للعالم ، وكأنه افراط تجاوز الحدود • وكان من الواضح أنه لو نشبت حرب لدمرت ما بقى من حضارة أوربا الغربية حتى ان منيت روسيا بهزيمة منكرة فى نهاية المطاف ، ولم يكن هنالك ما يوحى بأن تجنب هذه الحرب بأية وسيلة أو تضحية غير المعاهدة ، كان أمرا مستطاعا • ومن ثم أغفلت مشاعر شعوب أوربا الغربية عند ابرام الاتفاقية •

وكان لابد من أن يوجد فى كل جانب من كان يرى أن الطرف الآخر قد أحرز قصب السبق • فأشار بعض الروس الى أنه كان بوسعهم أن يفرضوا سلطانهم ، بعون من الصين ، على استراليا قبل أن يمضى وقت طويل ، وأن أملا كبيرا كان يحدوهم فى ضم المانيا الغربية الى صفوفهم عن طريق التسلل السلمى • وكانوا يرون أنه كان يمكن تطهير أفريقيا حتى فى حالة عدم خضوعها لروسيا ، من البيض لو أمكن المضى فى امتصاص ما تبذله أمريكا وأوربا الغربية من جهود فى مقاومة روسيا • وفى الجانب الأمريكى أثيرت بعض الشكوك الخطيرة ، فقد طفقوا يرددون أنه كان من الخطأ البالغ التضحية بقصدير الملايو ومطاطها ، لكن المطاط الصناعى وقصدير بوليفيا واستراليا كانا تعويضا كافيا • أما الأدهى من ذلك فهو فقدان بترول الشرق الأوسط • وتلافيا لهذا الخطر ، وحتى يكون الأمر مقبولا ، اتفق الطرفان على أن تنضم أندونيسيا الى الكتلة الأمريكية • هذا وقد كان فى أمريكا عدد من أشد الناس اقتناعا بأن الشيوعية شر ولا ينبغى عقد صلح معها أو معايشتها فى سلام • ولما كان أصحاب هذا الرأى نفرا قليلا معظمهم من الديمقراطيين ، فلم يكن لرأيهم وزن كبير ، وكان أهم كسب أحرزه الروس ، الى جانب تحقيق السلام ، هو الابقاء على الصين فى مركز التابع ، وذلك بالحيلولة دون تطورها الصناعى ، ومن ثم عادت الامبريالية البيضاء لتصبح فى أمان فى كلا المعسكرين •

وانطوت المعاهدة على امتيازات أخرى الى جانب صون السلام • فلقد كانت المنازعات والفتن بين الدول البيضاء قد أضعفت سيطرتها التى

فرضتها على آسيا وأفريقيا فى غضون القرن التاسع عشر • وبابرام هذه المعاهدة عادت سيادة البيض لتقوى وتتدعم ، كما استطاع الروس أن يقهروا الهند وباكستان دون مشقة • أما مشكلة تزايد السكان التى ساد الزعم بأن حلها عن طريق تخفيض معدل المواليد عمل غير أخلاقى ، فقد أمكن علاجها بحرمان الزنوج من الارشاد الطبى ، وحظر ما كان البيض يضطلعون به من اجراءات لتحسين أحوالهم الصحية ، ومن ثم ارتفعت معدلات الوفيات ، فتنفس البيض الصعداء •

ورغم هذه المزايا العديدة كان لايزال هناك بعض المتذمرين ، فقد كان فى أمريكا من تاق الى قراءة شعر الشعراء الذين أشادوا بالحرية أمثال « ميلتون » و « بايرون » و « شيلى » • لقد ظلت أعمال هؤلاء الشـعراء تقرأ لفترة محـــدودة فى أوربا الغربية ، ولما نمى الى علم الكونجرس أن مؤلفاتهم توزع فى طبعات زهيدة الثمن فى تلك الدول الرجعية قرر فرض عقوبات اقتصادية حتى يتم تصنيف هذه الكتب ، ونعم العالم الجديد الذى خلقته المعاهدة بانتعاش مادى كبير • لكن لم يكن ثمة فن أو فكر جديد الى جانب قدر ضئيل من العلوم المبتكرة الحديثة • فقد حظرت العلوم الطبيعية النووية حظرا تاما ، وأحرقت الكتب التى لها علاقة بها بلا استثناء • ومن كان يظهر الماما بهذه العلوم كان يحكم عليه بأعمال السخرة • ودأب بعض الرومانسيين المخدوعين على النظر الى الوراء وقد ملأتهم الحسرة على القرون الخوالى التى شهدت شخصيات عظيمة ، ولو كانوا حكماء لما باحوا بما يعتمل فى نفوسهم •

وكانت الشكوك فى بادىء الأمر قد اســـتحوذت عليهم حول الوفاء بنصـــوص المعاهدة ، لكن مكارثى وماليتكوف كانا متفقين ومتحدين فى أهدافهما ، فلم يتعذر عليهما التعاون الصادق البناء ، واختار كل منهما خلفا يؤمن بالأهداف نفسها • وكان مضى ثلاثة وأربعين عاما على توقيع المعاهدة كفيلا باقناع الجميع ، ماخلا فئة ضـــئيلة من المشاكسين ، بأن الحلف راسخ بقدر ما هو نافع ، فلنسبغ على ذكرى الزعيمين العظيمين ، اللذين حققا للعالم السلام ، كل تكريم وتقدير •

حلم دين آتشيسون

كتبت قبل ترشيح أيزنهاور لرئاسة الجمهورية

أنشودة الموت لمينلوس ٠س٠ بلوجز

حلم دين أتشـــيسون ، أثناء تقاعده ، أنه قرأ فى احدى صـــحف الجمهوريين مقالا جاء فيه : « ان دين اتشيسون يقاسى ، كما يتوق أن يعرف ذوو الآراء السديدة ، من عقاب جريمته العادل · ولم يغب عن بالنا جميعا كيف أنه قرر بعد أن استجوبته لجنة الكونجرس ســـت ساعات متواصلة ، أن حادثة معينة مضى عليها سبع سنوات قد وقعت فى أحد أيام الثلاثاء ، لكن الأدلة الدامغة التى تبرهن على وقوعها يوم الاربعاء قدمت للكونجرس ، فحوكم بتهمة الادلاء بشهادة زور ، ونال جزاءه كمذنب اذ صدر الحكم عليه بالسجن فترة طويلة · لكن بالرغم من ادانته لم يندم على ما ارتكب ، بل راح يؤكد لمن سمح لهم بزيارته بأن السياسة التى انتهجت من بعده ستؤدى حتما الى الدمار ·

وما أن قرأ هذا المقال حتى تغير طابع حلمه ولاح له أن جانبا من الحجاب الذى يخفى المستقبل قد انزاح ، وانطلق صوت طيف خفى يعلن له بنبرات تنم عن حزن وأسى ، أحداث المستقبل · قال الصوت :

« هذه هى أنشودة الموت لسناتور « منيلوس · س · بلوجز » وهو على وشك أن يلقى حتفه فى حادثة مروعة بجزر فولكلاند ·

هناك من ينحى باللائمة على رئيســنا الخالد « بســـمارك · أ · مكســافت » لما حل ببلادى من نكبات ، وكان لومهم ظلما وبهتانا · وأرى لزاما على قبل أن توافينى المنية ، أن أسجل البطولة الرائعة التى ناضل بها هذا الرجل العظيم الهمام فى سبيل الحق · ومع الملايين غيرى يممنا وجوهنا شطر تلك الشواطىء المحايدة اعتقادا منا ، بناء على تقارير ادارة المصايد ، بأن منابع السمك فى المناطق الجنوبية لا تنضب · وأأسفاه ، لم نكن نعرف سوى النزر اليسير من أبناء العلوم ، فما لبث ان استبان لنـــا

أن الاشعاعات الذرية قد قضت على كل سمكة تعيش فى نطاق ألف ميل من هذا الأرخبيل الذى تلطمه العواصف والرياح العاتية ، وما أن طارت الأنباء الأولى تعلن فناء تلك الأسماك حتى خاطرت شرذمة من الرجال المتهورين بتناول ما لم يمض على موته منها وقت طويل · لكن واحسرتاه على هؤلاء الرجال ، فقد برهن ما تناولوه على أنه قاتل ، ، ولفظوا أنفاسهم الأخيرة وهم يعانون آلاما مبرحة · وان حرمنا من السمك سرعان ما التهمنا كل ما وقعت عليه أيدينا من أغنام وماشية قليلة فى المراعى النادرة لتلك الشواطىء القطبية الماحلة · ثم أخذنا نعيش على الطحلب كحيوان الرنة ، بيد أن الطحلب ، للأسف ، لم يكن وفيرا ، وسرعان ما تلقى حتفها فى هذا الطرف من العالم الحر تلك الفئة الضئيلة التى لا تعيش بين جدران السجن · وماذا عن المهمة التى أتت من أجلها ، انى لأحس بواجب نحو الأجيال القادمة ، ان وجدت ، وسوف يسىء الى ذلك الرجل العظيم الخير أولئك الأعداء الذين أطاحوا به ، ولسوف يدخل ما يسمونه هؤلاء الأوغاد تاريخا بفضيحة لا يستحقها · لكنى عثرت على علبة لا تتأثر بالأشـــعة الذرية سوف أودعها هذا السجل يحدونى الأمل فى أن يكتشـــفها علماء الآثار فى أحد العصور المستقبلة وينصفون ذلك الرجل العظيم الذى اندثر ولم يعد له وجود ·

ولم يغب عن بالنا ، نحن الذين نعيش فى هذه الجزر ــ ولاتزال قلوبنا تخفق مع الذكرى ــ تلك الغبطة التى ملأت نفوس المواطنين ذوى الآراء السديدة عندما اتضح فى شهر نوفمبر من عـام ١٩٥٦ ، أن مصير بلادنا العظيمة قد انتزع من أيدى أنصار ترومان واتشيسون الواهنة ومن أتباع أيزنهاور الذين لا يقلون عنهم ضعفا والذين لم يكونوا سوى أدوات يحركها الكرملين كيفما شاء ، ثم أوكل لمدة لا تقل عن سنوات أربع حاسمة لوطنية «بسمارك ٠أ٠ مكسافت » الصادقة ، وما أن أصبح رئيسا للجمهورية حتى راح يعمل بذلك الحماس الصادق المتأجج الذى تميط اللثام عنه خطبه القوية المترابطة ، لم تعد دول أوربا الغربية الجبانة تفرض قيودا على جهاد أمريكا وحماسها فى سبيل الحق · ولم يعد يسمح للخونة والشيوعيين المتخفين أن يزعموا بأن لشيانج كاى شيك مساوئه وأن الصينيين يمقتونه ولقد أرسل جيش عرمرم ليوليه السـلطة فى بكين فتظاهر الشـيوعيون الصينيون بما كان ينتظر منهم من ضعف وخوار عزيمة ، وراحوا يتجنبون المعارك وجها لوجه ويجرون أبناءنا الشجعان رويدا رويدا الى قلب الجبال المقفرة ، ويحملوننا على تشتيت قواتنا فى مناطق واسعة ، دفاعا عن المدن، والسكك الحديدية والطرق المتشعبة · وفرضنا سيطرتنا كاملة ، كما كان

يبدو ، على شـــرقى الصين ٠ بينما ظل الجزء الغربى بعيدا عن متناول أيدينا ، وتورطت قواتنا فى القتال شيئا فشيئا واستخدمت قنابلنا الذرية، دون جدوى ، فى مناطق غير آهلة بالسكان ، بينما انقسمت جيوش العدو الى عصابات متنقلة ٠

وآنذاك أوقع الروس ، كما كان متوقعا ، بدول أوربا الغـــربية البائسة ما حتمته رغبتهم الحقيرة فى الحفاظ على النفس ، واحتل الروس ، دون مقاومة تذكر ، الرور واللورين وشمال فرنسا ٠ وسمح لذوى المهارات الفنية بالعمل كعبيد سخرة فى المنطقة ، وأرسل مادونهم لقطع الأخشاب فى غابات أركانجل أو استخراج الذهب من مناجم شمال شرقى سيبيريا ٠ وانطلقت الغواصات الروسية تضايق تنقلات القوات الأمريكية فى الصين حتى بلغت مصاعبها فى النهاية حدا تقرر معه اســتدعاؤها الى أرض الوطن ٠

فى هذه الأثناء اعتنقت أمريكا اللاتينية ــ من « ريوجراندى » الى « كيب هورن » ــ المبادىء الشيوعية ، كما انضوت تحت لواء موســـكو آسيا بأسرها ما خلا المناطق التى كانت القوات الامريكية تحتلها فعــلا ٠ وبفضل ما قام به دكتور مالان من نشاط تحول الأفريقيون الى الشيوعية ، وابان الهجــوم الذى شــنته القوات الروسية على أوربا الغربية قطعت رأس كل رجل أبيض فى أفريقيا من كيب بون الى رأس الرجاء الصالح ٠ وبعد أن احتل الروس جنوب أفريقيا راحت الطائرات الضخمة تنقل القوات والذخيرة الى أمريكا اللاتينية ، واستطاعت الدعاية الواسعة النطاق ان تحمل سكان بيرو وبوليفيا والبرازيل على الاعتقاد بأن روسيا هى ناصرة الرجل الأحمر فى نضاله ضد تعسف الأبيض واستبداده ، وانطلقت أفواج كبيرة من الرجال الحمر قام الكرملين بتنظيمها وتسليحها ، تدفعها المذابح الرهيبة ، تتقدم عبر المكسيك لتقضى على فلول الجيش العائدة من الصين ٠٠ الجيش الذى ثبطت الهزيمة عزيمته ، وأنهكت الملاريا قواه ولم يكن ، وان كنت اعترف بذلك فى خجل ، مقتنعا تماما بعدالة قضيته ٠

ولما رأيت أن كل شىء قد ولى ، أبحرت مع كثيرين غيرى فوق ظهر سفينة كانت تقف على أهبة الاستعداد فى نهر بوتوماك ٠ آه ، يا للعار ! لقد امتد أجلى لأشاهد المطرقة والمنجل يخفقان فوق مجلس النواب الأمريكى ٠٠ ولولا يد العناية الالهية الرحيمة التى أخفتنا فى سحابة مرت فجأة فلذنا بالفرار ، لأغرقت المدافع الروسية سفينتنا الصغيرة ٠

ان بيننا من يقول ان هذه الأحداث المؤسفة ان دلت على شىء فانما تدل على قصور سياسة رئيسنا العظيم ، لكن أولئك الرجال لا يفقهون فى

الأمور الأخلاقية شيئا . فمن الأفضل كثيرا أن نقاتل فى سبيل الحق ونموت أبطالا من أن ننغمس فى اعتبارات سياسية وضـيعة من شـأنها أن تنقذ أجسادنا ، لكنها تطيح بنفوسنا . لم يعد للولايات المتحدة ، من الناحية المادية ، وجود ، لكنها ستبقى ، من الناحية الأخلاقية ، أبد الدهر منارا هاديا وضـوءا سـاطعا نقشت فوق لوائه الخالد الكلمات الرائعة لآخر وأنبل رئيس لجمهوريتنا :

« سوف نقاتل فى سبيل العدل والحق وان سـقطت السـموات ، ونناضل من أجل الحرية وان أدى ذلك الى سجن تسعة أعشار شعبنا » . وبهذه الكلمات الخالدة المنقوشة على صفحة قلبى أعد نفسى فى سكينة للموت .. آمين ..

وقد بلغ تأثر دين أتشيسون بهذه القصة الغريبة القاتمة حدا تعذر معه تصديق أنها لمحة حقيقية عن المستقبل ، وعلى أساس هذا الاعتقاد أفضى برؤيا « سـناتور بلوجز » الى محاميه الذى اسـتغلها فى تأييد الاستئناف الذى يطالب فيه باعادة النظر فى الحكم بحجة وجود اختلال فى العقل .

وهتف دين أتشـيسون يقول « ولكنى لسـت معتوها » . وبهذه الصيحة استيقظ من سباته .

حلم الدكتور سوثبورث فلبس

انتصار العقل على المــادة

قضى الدكتور «سوثبورت‌فلبس» يوما طويلا مضنيا فى وزارة الانتاج الآلى يحاول اقناع المسئولين بأنه لم تعد ثمة حاجة الى البشر فى المصانع باستثناء شخص واحد لكل مبنى يقوم بالحراسة ، ويفتح مفتاح التشغيل ويغلقه · كان يشتعل حماسا ، بيد أن عقلية البيروقراطيين التقليدية الجامدة كانت تحيره وتقلق نفسه ، ولقد أشار هؤلاء الى أن مشروعاته تتطلب استثمارات طائلة لاقامة المصانع الآلية ، التى قد يدمرها العمال المتظاهرون أو تشل نشاطها نقابات العمال الساخطة قبل أن يصبح انتاجها كافيا · وبدت له مثل هذه المخاوف تافهة لا يتصورها عقل · واستبدت به الدهشة اذ أن هذه الأحلام الرائعة التى ألهبت حماسه لم تثر لتوها آمالا مماثلة عند أولئك الذين سعى الى الاتصال بهم · وما كاد يبتعد عن أمطار شهر مارس الباردة ، فى حال من الاعياء والقنوط ، حتى غاص فى مقعد وراح يغط فى سبات عميق ، وفى نومه ذاق النصر الذى حرم منه فى ساعات يقظته · وحلم ، وكان الحلم جميلا ممتعا :

كانت الحرب العالمية الثالثة تمر ، كحصار طروادة ، بعامها العاشر، ومن وجهة النظر العسكرية لم يكن مجراها محددا بل متأرجحا ، فكان النصر يبدو تارة الى جانب وتارة الى الجانب الآخر ، لكنه لم يحالف طرفا دون الآخر فترة طويلة · أما من الناحية الفنية ، وهى التى كانت تهم دكتور فلبس ، فكان نجاحها هو كل ما يتمناه ·

ففى غضون العامين الأولين للحرب حل الانسان الآلى محل العمال الآدميين فى جميع المصانع القائمة على الجانبين ، ومن ثم تسنى توفير احتياطى ضخم من القوى العاملة للجيوش المتطاحنة · بيد أن هذا التطور الذى لقى ترحيبا بالغا من الحكومات فى بادىء الأمر ما لبث أن برهن على أنه لا يحقق الآمال المعقودة عليه · فكانت الخسائر فى الأرواح ـ التى تمخضت أساسا عن حرب البكتريا ـ مذهلة ، وفى أجزاء من الجبهات

الواسعة تمرد من ظلوا على قيد الحياة بعد أن اجتاحتهم الأوبئة الفتاكة ، وراحوا يطالبون بالسلام • واستبد اليأس بالحكومات المتطاحنة لفترة غدا اذكاء نار الحرب خلالها أمرا متعذرا ، أما دكتور فلبس ، وفينيكوفسكى ستوكنمودوفتش ، المناظر له على الجانب الآخر ، فقد اهتديا الى السبيل للتغلب على تلك الأزمة •

لقد تمكن العالمان ابان العامين الثالث والرابع للحرب من صنع جنود آليين حلوا محل الآدميين فى سلاح المشاة على الجانبين ، واتسع نطاق العملية خلال العامين الخامس والسادس حتى شملت جميع الضباط ممن هم دون رتبة لواء • واستبان لهما أن مهمة التعليم أو التوجيه ـ كما كانوا يسمونها رسميا آنذاك ـ يمكن أن تضطلع بها الآلات بصورة أدق لو تولاها المعلمون والأساتذة الآدميو ن، وان كان من المتعذر ازالة الفوارق الفردية بين المعلمين الآدميين ، فان الأعداد الضخمة من المفقهين الآليين التى صنعها الدكتور فلبس والرفيق ستوكنمودوفتش كانت تردد بلا استثناء شيئا واحدا وتلقى الخطب بحذافيرها حول أهمية النصر • وما تمخض عن ذلك من رفع الروح المعنوية ، كان مذهلا حقا • وفى العام الثامن للحرب لم يكن هناك من الشبان الذين تدربوا لتولى القيادة العليا للجيوش الآلية الضخمة من يرهب الموت المحقق فى المناطق الموبوءة بالطاعون حيث كان القتال دائرا ، وبينما هؤلاء الشبان يلقون حتفهم أمكن للبراعة الآلية أن تتطور شيئا فشيئا حتى توصلت الى ما يغنى عن استخدامهم فى مثل هذه المعارك •

وفى نهاية الأمر كاد الانسان الآلى أن يضطلع بكل شىء ، ومع ذلك لم يتيسر ، حتى الآن ، الاستغناء عن بعض الكائنات البشرية •• عن خبراء الجيولوجيا لتوجيه الانسان الآلى لبث الألغام فى مناطق محددة ، وعن الحكومات للبت فى المسائل السياسية الكبرى ، وعن الدكتور فلبس والرفيق ستوكنمودوفتش لتكريس عقليهما الجبارين لضروب من الابتكارات المذهلة •

كان هذان الرجلان يملأهما الحماس ، كما كانا يعيشان فوق مستوى المعركة بمعنى أنهما لم يهتما بالأمور التى يزهق عليها الساسة فصاحتهم بل راحا يركزان جل جهودهما للبلوغ بآلاتهم درجة الكمال • ولم يكن أيهما يرغب فى أن تضع الحرب أوزارها خشية أن يعود الرجال الى أساليبهم التقليدية ويصرون على استخدام السواعد والعقول البشرية فيما يمكن للانسان الآلى أن يضطلع به دون كلل وبدقة أكبر • وربطت أواصر الصداقة

الحميمة بين هذين الرجلين ، اذ كانت أهدافهما واحدة وان أخفيا هذه الحقيقة عن الساسة الذين كانوا يستخدمونهما • واستغل العالمان بعض قواتهما الآلية لشـــق نفق فى قلب جبال القوقاز التى كانت قوات الغرب تسيطر على طرف منه ، بينما كان الطرف الآخر يخضع لسلطان قوات الشــــرق ، ولم يكن هناك من يعرف ـ خــــلاف الدكتور فلبس والرفيق ستوكنمودوفتش ـ أن للنفق منفذين ولم يسمحا لغير الانســـــان الآلى بارتياده ، كما استخدما الانسان الآلى لتدفئة النفق واضاءته وتكديس كميات الطعام الضخمة داخله فى شكل « كبسولات » أعدت بطريقة علمية للمحافظة على الحياة والصحة ، وان كان مذاقها غير مستطاب ، فقد كان كلاهما يعيش حياة العقل ويعرض عن ملذات الجسد وشهواته •

وســـــمح الدكتور فلبس لنفسه ، وهو يهم بدخول النفق ، ببعض التأملات الخاصة عن عالم الشمس المشــــرقة الذى ينوى هجره مؤقتا للاجتماع بالرفيق ستوكنمودوفتش فى أحد مؤتمراتهما الدورية ، وراح يحملق فى البحر من أسفل وفى القمم الثلجية من أعلى ، فطافت بخياله ذكريات غامضة عن التعليم الكلاسيكى الذى أفقده ـ دون رغبة منه بل بأمر والدين متخلفين ـ سنوات حياته البكرة • وهكذا طفق يفكر قائلا لنفسه : « فى هذا المكان كبل زيوس برومثيوس بالأغلال •• برومثيوس الذى اتخذ الخطوة الأولى فى سبيل ذلك التقــــدم العلمى المجيـد ، والذى قاد الى تحقيق ما بلغناه من كمال فى الوقت الراهن ، وكان زيوس • شأنه فى ذلك شأن الحكومات فى أيام شبابنا ، يؤثر الأساليب القديمة • لكن برومثيوس لم يعرف ، على النقيض منى ومن صديقى ستوكنمودوفتش السبيل الى التفوق بالدهاء على الرجعيين فى عصره ، ومن اللائق أن أحقق النصـــــر حيث تألم بورمثيوس وأن نميط اللثام عن مكانة زيوس ورعوده التافهة بما لنا من براعة ذرية » • بهذه الكلمات ودع ضوء النهار وتقدم حيث يلتقى بصديقه •

كان الرجلان قد عقدا ابان الحرب مؤتمرات سرية متعددة ، ودأب كل منهما على أن يطلع ـ فى ثقة متبادلة ـ صديقه على ما وصل اليه من اختراعات تذكى نار الحرب وتدفع الى استمرارها •

وفى منتصف النفق التقى بصديقه ستوكنمودوفيتش قادما من الشرق، وتشابكت أيديهما ، وحملق كل منهما فى عينى الآخر فى حب خالص فياض، وقبل أن ينغمسا فى المسائل الفنية سمحا لنفسيهما بالاســـتمتاع هنيهة بعملهما المشترك وطفقا يرددان : « يالجمال العالم الذى تخلقه ، ان بنى

الانسان لا يستقرون على حال ، فغالبا ما ينتابهم الجنون ويتسمون بالجبن وتارة تستبد بهم المثل المناهضة للحكومة ، فكم يختلف عن ذلك انساننا الآلى الذى تضفى الدعاية عليه أثرها المنشود » ٠

وانطلق الحكيمان يقول كل منهما للآخر : « ترى ما الذى ينشده أشد الأخلاقيين تحمسا ولم نحققه نحن له ؟ فالانسان الآدمى عرضة للخطيئة ، أما الآلى فمعصوم من الخطأ ، الأول يتسم بالغباء فى الغالب الأعم ، بينما لم يصدر عن الثانى شىء من هذا القبيل ، كما أن الآدمى عرضة للشذوذ الجنسى بعكس الآلى » ٠ وقال كل منهما للآخر : « لقد قررنا معا منذ أمد طويل أن السلوك أى ما يمكن أن يلاحظ من الخارج ــ هو ما يميز الانسان ٠ وسلوك الانسان الآلى أفضل فى شتى النواحى من سلوك الانتاج البيلوجى وليد الصدفة الذى انتفخ فى غطرسة حمقاء ٠٠٠ يالبراعة الانسان الآلى ودقة استراتيجيته وجرأة أساليبه ، يالبسالته وهو يخوض المعارك ! هل يحلم بأكثر من ذلك من هو ليس ضحية للخرافات التى عفى عليها الزمن ؟ » ٠

كان الدكتور فلبس والرفيق ستوكنمودوفيتش قد اكتشفا الوسائل التى تجعل الانسان الآلى يستجيب للفصاحة ويتأثر بها ، فكانت الخطب الرنانة لرجال السياسة المحنكين على الجانبين تسجل ٠ وما أن ينطلق صوت الكلمات المؤثرة حتى تأخذ عجلات الانسان الآلى فى الطنين ويتصرف على نحو ما كان الساسة ينشدون من الآدميين بل وبأكثر دقة ٠ ولم يكن الأمر يحتاج سوى اختلافات طفيفة حتى يستجيب الانسان الآلى لنوع من الدعاية مغاير لما يتأثر به ذاك الذى فى الجانب الآخر ٠ فكان انسان الدكتور فلبس يستجيب لما يفوه به رجل السياسة العظيم فى عالمنا الغربى من كلمات بليغة : « أيمكن أن نقف مكتوفى الأيدى مترددين ونحن نرى جماعات غفيرة قد عقدت العزم على أن تمحو الايمان بالله وأن تنتزع من قلوبنا ذلك الايمان بالخالق الرحيم الذى يعيننا على احتمال المشاق وعلى مواجهة الصعاب والأخطار ؟ وهل نقبل التفكير فى أننا لسنا سوى آلات بارعة على حد زعم أعدائنا الجبناء ؟ وهل نتخلى عن ذلك التراث الخالد للحرية التى ناضل من أجلها أجدادنا والتى فى سبيل الدفاع عنها اضطررنا الى أن نوقع على الآلاف عقوبات السجن الصارمة ؟ هل يمكن لأحد منا أن يتردد فى مثل هذه اللحظة ؟ وهل يتراجع واحد منا ؟ وهل يتصور أحدنا هنيهة أنه يمكن مقارنة التضحية بحياتنا الفردية وبكياننا الشخصى التافه بالحفاظ على تلك المثل التى قاتل من أجلها أجدادنا وفى سبيلها أراقوا

الدماء ؟ كلا ! وألف كلا ! الى الأمام أيها الأخوة المواطنون ! واذ نسير فى هدى الحق ثقوا بأن النصر لقضيتنا فى نهاية المطاف » ·

كان انسان الدكتور فلبس الآلى مركبا على نحو يمكنه ، حين يكرر الحاكى تلك الكلمات العظيمة على مسمع منه ، من القيام ، بلا تردد أو شك ، بمهمته المحددة التى لم تكن تستهدف الا أن تثبت أن العالم لا تحكمه الآلية وحدها ·

ولم يكن انسان الرفيق ستوكنمودوفيتش بأقل كفاءة ، فكان يستجيب بقدرة مماثلة لتسجيلات الحاكى لخطب القائد العام الملهمة : « أيها الرفاق، هل أنتم على استعداد لأن تظلوا أبد الدهر عبيدا للمستغلين الرأسماليين الجبناء ؟ وهل يمكن أن تتذكروا للمصـــــــير العظيم الذى أعدته المادية الجدلية لأولئك الذين أعتقوا من الأغلال التى كبلهم بها هؤلاء المستغلون الأدنياء ؟ أيمكن لما هو على هذا النحو من الجحود والانحطاط والقسوة كفلسفة الحكومة البريطانية الدنسة ، أن يفرض ســـيطرته على الجنس البشرى الى الأبد ؟ كلا ! وألف كلا ! الحرية لكم ان جاهدتم فى سبيلها بعين الحماس الذى أعان روادكم على خلق الدولة العظمى التى هى الآن فارس أحلامكم · الى الأمام نحو النصر ! الى الأمام نحو الحرية ! والى الأمام نحو الحياة والبهجة » ·كان لهذه الكلمات التى راح الحاكى يعيدها تأثيرها البالغ على انسان ستوكنمودوفيتش الآلى ·

والتحم الجيشان المتطاحنان بأعدادهما الغفيرة التى تبلغ الملايين واكتست السماء بالطائرات المتنافســة التى يقودها طيارون آليون · ولم يحدث قط أن قصر الانسان الآلى فى أداء واجبه ، ولم يلذ مرة بالفرار من ميدان القتال ، ولم تهتز أجهزته يوما بفعل تأثير دعاية العدو ·

ولم تكن سعادة دكتور فلبس والرفيق ستوكنمودوفيتش قد اكتملت قبل أن يلتقيا فى العام العاشر لاندلاع نيران الحرب ، فالكائنات البشرية ما انفكت تعمل فى الأجهزة الحكومية ، ومازالت تحتمها الضرورة كخبراء الجيولوجيا اللازمين لتوجيه الآليين الى مصادر جديدة للمادة الخام اذ قد نضب معين الموارد القديمة · لقد كان هنالك خطر أن تعقد الحكومات صلحا ، أما الخطر الأدهى الذى يصعب تجنبه فهو أنه لو استبعد خبراء الجيولوجيا لتوقف نشاط الانسان الآلى باستنفاد المناجم · ولم يكن تجنب الخطر الأول أمرا متعذرا ، وحينما التقيا هذه المرة أفضى كل منهما الى الآخر بما لديه من خطط لازالة الحكومات على الجانبين ، بيد أن الحاجة

الى خبراء الجيولوجيا ظلت تؤرقهما فكرسا مداولاتهما فى هذا الاجتماع لحل تلك المعضلة · وأخيرا ، وبعد شهر من التفكير المضنى أمكن الوصول الى الحل باختراع كشاف آلى قادر على توجيه غيره الى حيث توجد المناجم ، فهناك كشافون آليون للعثور على الحديد وآخرون لاكتشاف البترول ، وغيرهم للتنقيب عن مناجم النحاس واليورانيوم ، وهكذا بالنسبة لجميع المواد التى تتطلبها الحرب التى تقوم على أسس علمية · ومن ثم تبدد خوفهما من أنه حين ينضب معين المناجم تضع الحرب أوزارها وتتوقف القدرة على الخلق والابداع ·

وما أن انتهيا من صنع هؤلاء الكشافين الآليين حتى قررا البقاء فى نفقهما والانتظار فى هدوء حتى تباد البقية الباقية من الجنس البشرى · كان شبابهما قد ولى ولاحت عليهما سمات الهدوء الفلسفى التى يتسم بها أولئك الذين أكملوا رسالتهم فى الحياة ، وعاش الحكيمان ـ تسهر على رعايتهما واطعامهما جماعات من الآليين التابعين ـ عمرا مديدا ، ووافتهما المنية فى لحظة واحدة · ومات الرجلان سعيدين وقد أدركا أن الحرب لن تتوقف طالما ظلت الأرض بلا دبلوماسيين يؤجلونها ، أو مستهترين تساورهم الوساوس حول نقاء الشعارات المتنافسة ، أو مرتابين يشكون فى غاية النشاط المبدع اللانهائى ·

وفى غمرة الحماس التى ملأت نفسه استيقظ دكتور فلبس من نومه ، واذا هو يردد القول : « لا مخاطرة بالنصر بعد اليوم ! بل حرب الى الأبد» ومن سوء حظه تناهت هذه الكلمات الى سمع المسئولين فزجوا به بين جدران السجن ·

« زهاتوبولك »

الفصـــل الأول

المـــاضى

فى رداء فضفاض وبخطى وئيدة اعتلى بروفسير « دريوزدستادز » ، عميد كلية التعليم الطائر الصيت ، منصته بقاعة الانكا بمدينة كوزكو ، بعد أن أعيد اليها رونقها وجلالها ، حيث واجه الحاضرين الذين كانوا يتحرقون شـوقا الى سماعه فى مستهل العام الدراسى · وكان قد خلف فى هذا المنصب الخطير أباه ، بروفسـير « دريوزدست » ـ الذى لم يكن دونه شهرة ـ بعد أن وافته المنية · أما من كان على وشـك أن يحاضرهم من الدارسين ، فهم المائة المنتقاة من طول البـلاد وعرضـها ممن كانوا يبشـرون بمستقبل باهر مشـرق وأنهوا المرحلة العادية فصـاروا يقفون على أعتاب دراستهم العليا التى جعلت لكلية التعليم مالها من تأثير بالغ على الرأى العام · واشرأبت أعناق الشباب ينتظرون فى شـوق ولهفة كلمات الحكمة الرصينة ـ وفى ذلك لم يداخلهم أدنى شـك ـ التى توشك أن تتدفق من بين شفتيه · ولم تظهر بين تلك الصفوة المختارة دلائل أى ذكاء متقد يستوقف الانتباه الا بين اثنين دون غيرهما : أحدهما ابنه توماس الذى يرجى أن يخلف أباه فى مركزه المرموق حين تحين الساعة ، والآخر فتاة رائعة الحسـن ، عميقة التفكير ، تلتهب حماسـا وغيرة ، اسمها « ديوتيما » كانت قد أسـرت بالحب قلب توماس ·

وتنحنح البروفسير ورشف قليلا من الماء ، ثم طفق يقول :

« ان موضوع محاضـرتى اليوم هو القرن الثلاثون قبل «زهاتوبولك» أو القرن العشـرون بعد الميلاد كما يطلق عليه الذين عاشـوه · ويعتقد الحكماء ممن يرسـمون سياسة التعليم فى هذه البـلاد السعيدة أنكم ، أيهـا الصـفوة المنتخبة ، قد بتم راسخين فى فهم وتقدير عقيدتنا المقدسة والالهام الذى ندين به للاله زهاتوبولك ، مؤسس هـذه العقيدة ، رسوخا يتسنى لكم معه أن تسمعوا عن عصـور كانت تفتقر الى ايمانكم وحكمتكم

دون أن يختل اتزانكم العقلى . وبديهى أنه لن يغيب عن بالكم هنيهة أنها كانت عصورا غارقة فى دياجير الظلمات . وخليق بكم كذلك - كباحثين مجدين فى دراسة التاريخ - أن تعزلوا ، وان تكن مهمة شاقة مضنية فى بعض الأحايين ، فى خيالكم كل ما تعرفونه عن المخلصين الصالحين مدركين بأنه وسط الظلمة عينها قد وجد رجال يرقون الى مستوى أفاضل الرجال ، اذا ما قيسوا - على الأقل - بمن كانوا يعيشون فى زمانهم .. وحرى بكم أن تتعلموا ألا ترتاعوا حين تعلمون أن أولئك الذين كانوا يحظون باحترام الجميع وتبجيلهم كانوا يأكلون البازلاء علانية وبلا حياء ! .. ولعل الحقيقة الأخرى التى قد يصعب عليكم التجاوز عنها هى أنه حين كان عدد أبنائهم يتعد ثلاثة الأولاد لم يأكلوا ، كما نفعل نحن ، الزيادة من أجل مجد الدولة بل كانوا يبقون عليهم ، فى أنانية ، أحياء . وخلاصة القول أن من واجبكم أن تنموا فى ذواتكم ملكة الخيال التاريخى . دون أن يخفى عليكم أنه وان كانت هذه فضيلة تتحلون بها أيتها النخبة المنتقاة ، الا أنها ستكون عاملا هداما جد خطير فيما لو انتشرت فى دوائر أرحب وأوسع نطاقا . واذكروا دائما أن ما يتردد فى هذه القاعة انما هو وقف على الحكماء ولا ينبغى أن يذاع على السوقة ، وبهذا الشرط أبدأ مهمتى .

كان القرن الثلاثون قبل « زهاتوبولك » عصر انتقال سادته الفوضى وعمه الاضطراب ، عصرا زخر بالانتفاضات والنكبات ، عصرا استعيض فيه عن النظرية الاغريقية - اليهودية بالفلسفة البروسو - سلافية ، وتلاشى فيه من عقول الصغار والكبار على السواء أساس العقيدة التى بدونها لا ينعم المجتمع بأمن أو استقرار . كان هنالك ما يعرفه ضحايا الشك المدللون بعصر الايمان حين كانت الفلسفة الاغريقية - اليهودية يتقبلها الجميع بلا جدال باستثناء أقليات ضئيلة كانت تخرسها المقطرة ويأتى عليها التعذيب بالخازوق المنتصب فى قلب النار المتأججة . بيد أن الذى وضع نهاية لهذا العصر عقيدة فاسدة ضارة لم تجد لها بيننا - ويسعدنى التنويه بذلك - نصيرا واحدا ، تسمى بفلسفة التسامح . وآمن الناس فعلا أن بوسع الدولة أن تنعم بالاستقرار رغم الخلافات الجوهرية فى معتقدات المواطنين الدينية . تلك هى البدعة التى أدت الى انهيار النظرية الاغريقية اليهودية أمام الادعاء القوى للفلسفة البروسو - سلافية وأرجو ألا يساء فهمى ، فأنا لا أذكر - وأملى ألا يتصور أحدكم لحظة أننى أفعل ذلك - أن ثمة ذرة من الحق فى مبادىء الفلسفة الأغريقية - اليهودية أو فى تلك التى قامت عليها النظرية البروسو - سلافية ، اذ أن

واحدة منهما لم تتنبأ بالاله زهاتوبولك ، ولم يتبينا ما للرجل الأحمر من تفوق فطرى على ماعداه من الأجناس ، كما لم يدركا المبادىء السامية التى تقوم عليها ، فى سعادة تامة ، كل من الحياة العامة والخاصة ، من بينهما حياتنا نحن ٠٠ انما أقول عن تلك الأنظمة التى عفى عليها الزمن شيئا واحدا فحسب : أقول انها طالما ظلت قائمة وآمن بها الناس بحماس بالغ يتحتم معه الاصرار على وحدة الصف ، استطاعوا بذلك توحيد المجتمع عن نمط معين ـ حتى وأن لم يرق ، بالطبع ، الى مستوى الكمال الذى بلغناه نحن بفضل الهام زهاتوبولك ٠ لقد كانت للأنظمة السالفة جميعا نقائصها التى أدت الى انهيارها ٠ فكان النظام البروسو ـ سلافى يبدو فى أوج مجده راسخ البنيان ، شأنه فى ذلك شأن الفلسفة الصينية ـ الجاوية التى أعقبته ، بيد أن ما انطوت عليه من نقائص قد أطاح بها فى نهاية المطاف ، وما خلا من الشوائب سوى نظام زهاتوبولك، الذى سوف يكتب له الدوام ـ دون سواه ـ طالما وجدت كائنات حية تمد زهاتوبولك بالمتعبدين المؤمنين ٠٠٠

ومضى البروفسور يعلن أن معظم ما بين أيدينا من روايات عن انحلال الفلسفة الاغريقية ـ اليهودية قد سطر من وجهة نظر الظافرين ، فهى تبرز زحف النصر للاله ستالينوس واستئصال ما تبقى من المشايعين لذلك النظام المنهار فى كل بقعة من بقاع العالم ٠٠ وأشار الى أنه من واجب المؤرخ ـ لو تيسر له ذلك ـ أن يبحث عن روايات تمثل وجهة نظر الجانبين ، وأن يكون للمقهورين نصيبهم فيما يكتب فى هذا الصدد ٠٠٠

واستطرد يقول : « ومن حسن الحظ أنه ظهرت ، أخيرا ، فى جزر « فولكلاند » وثيقة تمكن من يطلع عليها من أن ينظر بعين العطف الى ما تميزت به نهاية عصر عظيم من قنوط وارتباك بالغين » ٠

وبعد أن فرغ من تلاوة الوثيقة مضى يقول : « كانت أمثال هذه الوثيقة مجهولة بطبيعة الحال حين سادت الفلسفة البروسو ـ سلافية ، فتحت لواء الاله العظيم « ديالميت » أسس سكان السهول الشمالية امبراطوريتهم المظفرة وساندوها بالتشريعات التعسفية التى لولاها ما حظيت أساطيرهم بالقبول ٠ ولقد ذاع صيت رسولهم « ماركوس » و « لينوس » فى جميع أنحاء الدنيا بواسطة الأيقونات التى كان على كل بيت أن يقتنيها ، ومن لم يحرزها كان الاعدام جزاءه ! ٠٠ وبات

المؤسسان يتميزان بطويل اللحية وقصيرها على التوالى ، وساد الزعم بأن فضيلتهما التى تسلب اللب انما تكمن فى زوائدهما الكثيفة الشعر ، ٠٠٠٠ أما خليفتهما « ستالينوس » الذى كانت فضيلته عسكرية لا عقائدية فلم ينل قدر ما حظى به سلفاه من تكريم وتبجيل ، وليس أدل على ذلك من الاستعاضة عن اللحية بالشارب فحسب !! وسرعان ما انقرضت اللغة الألمانية التى سطرت بها الكتب المقدسة لتلك الحقبة بعد زوال عهد « ستالينوس » ، فلم يستطع قراءتها سوى نفر ضئيل من العلماء الذين لم يكن يسمح لهم بالاتصال بالشعب الا عن طريق السلطة السياسية العليا ، فلقد كان ذلك القيد ضروريا بسبب ما تضمنته تلك الكتب من فقرات ، لو ترجمت بحذافيرها لأثارت قلق الحكام واضطرابهم وحملت المحكومين على الاستياء والتبرم ٠

« وسارت الأمور سيرها المحمود قرونا عديدة حتى جاء الوقت الذى توهم فيه الحكام أنهم فى أمان واطمئنان فأعاروا آذانهم لعلماء الصين المتشككين الملحدين ولم تكن لبعض هؤلاء المتشككين ، ولا غرو ، أية دوافع خفية بل كان يحركهم الفضول الفكرى الجامح الذى لعب دورا بالغ الشأن فى انهيار الحقبة السالفة ، لكن فريقا آخر يمثل الغالبية كان له هدف أسمى ، فلم يكن أفراده يرون أن ثمة مبررا لاحتكار البيض للكتب المقدسة ، وعقدوا العزم ، فى مخاتلة ودهاء ، على الحط من شأن تلك الكتب وجعلوا يوحون بأن فى لغتهم – التى يجهلها حكامهم – كتبا ضاربة فى القدم تفوقها قدسية وغموضا وتدعو للرهبة ٠ وراحوا يستميلون حكامهم رويدا رويدا وينشرون الالحاد بين صفوفهم ، أما هم فقد عزفوا عن ذلك ، وبعد أن اتحدوا معا بأوثق الروابط التى تربطهم بها عقيدة سرية انطلقوا يعملون فى الخفاء متذرعين بالصبر لتقويض الصرح الشامخ للنظام البروسو – سلافى ٠ وفى اليوم المعين الذى سبق أن حددوه فى مجالسهم السرية قبل وقت طويل ، هبوا للقضاء على حكامهم بسم مركز مستخلص من نبات كراكاتو البركانى ، ومن ثم بزغ فجر الحقبة الصينية – الجاوية التى سبقت عصرنا الميمون مباشرة ٠٠٠

« لقد ظلت بلادنا العزيزة ، التى هى اليوم فى أوج مجدها وعظمتها وتنعم بأمن دائم ، أجيالا طويلة تقاسى آلاما مريرة مبرحة ، ففى غضون القرون الأربعة الأخيرة من العصر الاغريقى – اليهودى تعرض الرجل الأحمر للخداع ، أو أصبح طريد القانون ، أو انحط الى مرتبة العبيد ٠

وفرض الرجل الأبيض الصلف سلطانه على قارتنا العظيمة التى طردته منها الطبيعة الرحيمة ردحا من الزمن ابان ازدهار امبراطورية الانكا الأولى ، ولاح لفترة كأن الاطاحة بهؤلاء السادة القساة تحمل بين جنباتها الحرية ، ولما كان « البروسيون ـ السلافيون » فى حاجة الى تأييدنا كى يطيحوا بالمعتدين من « الاغريق ـ اليهود » فقد جعلوا يقطعون أعظم الوعود بالحرية ليلهبوا حماسنا ويحظوا بتأييدنا ، فما أن تحقق لهم النصر حتى حنثوا بالعهد وألفى الحمر الشجعان ـ من كان لمعونتهم أبلغ الأثر فى الظفر ـ أنفسهم فى حال لا يفضل ما كانوا عليه من قبل ، ولم يطرأ علينا أى تحسن فى ظل العهد الصينى ـ الجاوى ٠ لكن التقاليد التليدة المستمدة من الماضى السحيق للانكا المقدسين وآثارهم التى ما برحت تخبر بمجدهم وعظمتهم ، هى وحدها التى أحيت الرجاء فى نفوس جماعة سرية صغيرة بأن اله أجدادنا سيعود ويمنحنا السيادة التى نستحقها بما لنا من فضائل ولما قاسيناه من آلام وأوجاع ٠٠

« وانغمس الصينيون ـ الجاويون ، مثلهم مثل حكام العصور السالفة ، شيئا فشيئا فى الملذات وفى الحياة الرغدة الناعمة ، فلم تغرهم قمم جبالنا الوعرة ووديان أرضنا المقدسة الصعبة المنال ، فسكنوا القصور فى السهول ، وأحاطوا أنفسهم بكل ألوان الترف ، يرتدون الحرير الناعم ويتكئون على الوسائد المزركشة ويقوم على خدمتهم ـ وان كنت أحس بخجل وأنا أفوه بذلك ـ عبيد من شعبنا ٠٠٠٠ عبيد لم يشاركوا سادتهم تخنثهم ودلالهم ، اذ لم يكن لهم نصيب فيما ينغمسون فيه من ملاذ وترف ٠ وفى تلك الحقبة ، أى منذ ألف عام فحسب ، ظهر الاله « زهاتوبولك » ٠ لقد حسبه ، فى بادىء الأمر ، بعض الناس انسانا ليس الا ، وكان ذلك كما نعلم ، ضلالا مبينا ، اذ نزل من قلب السماء واستقر فوق قمة جبل « كوتوباكسى » ورآته الألوف العديدة من بنى جنسنا ، ممن ألهمهم الوحى الالهى ، رؤية العيان وهو يهبط من العلا ، ومن ذلك الجبل المقدس تعطف بالنزول والحلول بين عابديه الذين سرعان ما تبينوا فى ملامحه صورة لالههم المجيد الذى كان يتقبل ولاءهم قبل مجىء « بيزارو » المخرب المرذول ٠ وتأجج الحماس المقدس فى نفوسهم جميعا بطريقة معجزة فأخذوا الداعرين الصينيين على غرة وأبادوهم ، وفى الحروب الطاحنة التى اندلع لهيبها بعدئذ ، قادهم زهاتوبولك الى النصر بفضل نوع قاتل من فطريات كوتاباكسى التى لم يكن أحد يعرف خواصها حتى أعلنها لتابعيه ، وظل ثلاثين عاما بينهم غارقا فى الحرب أولا ثم فى فنون السلم ، التى هى أشق وأعوص ، بعد أن تحقق النصر الشامل ٠ واليه

يرجع الفضل فى اقامة المنظمات التى نعيش اليوم فى كنفها ، وسيبقى « كتاب الناموس المقدس » ، مهما أضافت اليه الأجيال المتعاقبة ، أساسا لسياستنا · والويل كل الويل لمن يوحى بالتحول ولو قليلا عن تلك الرسالة السماوية المقدسة ·

الفصل الثانى

الحاضر

استغرق نظام الحكم الذى أقامه الاله « زهاتوبولك » فترة من الزمن حتى توطدت دعائمه · أما مبادئه فقد كانت على نحو من الرسوخ والحنكة السياسية بحيث لم تنتبها أية انحرافات جذرية خلال الألف سنة التى مضت على حلوله ، لقد انهارت الامبراطوريات السابقة جميعها ، كما علم زهاتوبولك ، من جراء الترف والنعومة ··· ترف فى المعيشة ورقة وسطحية فى التفكير · وهذا ما ينبغى على تابعيه أن يتجنبوه ، ومن ثم تحتم الامتثال لبعض القواعد دون اعتراض وتنفيذها بلا رحمة أو شفقة ·

وأول ما أوصى به الاله تابعيه هو أن يذكروا دائما سمو الجنس الأحمر على ما عداه من الأجناس ذات الألوان المتباينة · وأن لشعب بيرو السيادة على الحمر جميعا ، يليه فى المرتبة أهل المكسيك · ومن المسموح به ، بل من المحمود ، أن يشاد بما كان للمايا القدماء من حكمة قبل أن يبدأ رجس البيض بتلويث نصف الكرة الغربى ، على أن يظل شرف المجد القديم من نصيب الانكا · وفوق منحدرات كوتوياكسى نبتت فطريات دقيقة سامة كانت دماء هنود بيرو النقية محصنة ضدها ، بينما نشرت الموت الزؤام بين ما عداه من الشعوب ، وبعد اختبار ما كان يجلبه ذلك الوباء من دمار دانت بقية شعوب العالم لسلطان الانكا ، وبات التفكير فى التمرد أو الثورة عبر القرون أمرا غير محتمل الوقوع ·

وأمكن الحفاظ على قوة الجنس الحاكم بفضل قواعد عديدة

وتنظيمات حكيمة ، لقد حظر عليهم أى لون من الترف ، فكانوا يرقدون فوق أسرة صلبة ذات وسائد خشبية ويرتدون ثيابا من الجلد ، مع الاعتبار أن حلة واحدة تكفى أى رجل أو امرأة من مرحلة النضوج حتى الوفاة · وكان الحمام البارد فى الطقس الجليدى ووسط ثلوج الجبال اجباريا بقوة القانون ، أما الطعام ، وان كان صحيا وكافيا ، فقد روعيت فيه البساطة الا فى عيد الظهور السنوى ، وتحتم على كل مواطن فى بيرو أن يقوم بالتدريبات الرياضية العنيفة يوميا حفاظا على لياقته البدنية ، وحرم الخمر والتبغ على الطبقة الحاكمة وأن أبيحا لرعاياهم · وأعلن الاله زهاتوبولك مالم يكن معلوما من قبل ، وهو أن تناول البقول رجس يؤدى الى تلوث كريه ، فمن تناول البقول من بين البيروبيين كان الموت عقابه حتى ان لم يتوفر لديه غذاء آخر ، ومن شهد تلك الفعلة الشنعاء خضع لعملية تطهير شاقة طويلة ·· كان ذلك قاصرا على شعب بيرو حيث أن دماء ماعداهم قد تلوثت بالفعل ولا سبيل الى تطهيرها بحظر أو منع ·

وكان التدريب على الخشونة يبدأ منذ الطفولة ولاسيما بين الذكور ، فوزعت ساعات الدراسة بين العلوم والألعاب الرياضية والمباريات الخشنة العنيفة ، وحرم على الفتى أن يشكو من تعب ، أو برد ، أو جوع ، ولو حدث ذلك لكان من نصيبه الازدراء به كضعيف هزيل ولتعرض لاحتقار القائمين على أمره ولمعاملة أقرانه السيئة التى يستحقها ·· وكان ذلك النظام الصارم يودى بحياة من به ضعف جسمانى ، اذ ساد الاعتقاد أن من العبث تركهم على قيد الحياة ، فكانوا يلقون حتفهم منبوذين غير مأسوف عليهم ، وان بكاهم آباؤهم فذلك فى الخفاء خشية أن يشاركوا أبناءهم خزيهم وعارهم ·

أما التشدد فى تربية الفتيات ، فكان على نحو مغاير اعتقادا بأن النمو العضلى لا يساعد على انجاب الأطفال ، ولم يكن يسمح للفتاة أن ترضى شيئا من غرورها أو تكشف عن عواطفها فيما خلا التعبد الروحى والتكريس للانكا · وكانت تجبر على الطاعة المطلقة بأساليب عنيفة محددة ، ومع ذلك فان عددا ضئيلا ممن أظهرن قدرة بدنية ملحوظة تمتعن بشىء من الحرية والمبادرة وان لم يتعد ذلك حدود الأساليب التى تبيحها التقاليد ·

أما نشاط النساء ، باستثناء القلة الضئيلة اللائى اعتبرن فى شبابهن موهوبات بصورة فذة خارقة للعادة ـ فقد كان قاصرا على الأعمال

المنزلية ، ولم يعاملن على قدم المساواة مع الرجال ، اذ لم يكن ذوات نفع فى القتال مثلهم · حقا ، لم تنشب معارك بعد الأعوام الأولى ، اذ صار البيرويون يعرفون بأنهم شعب لا يقهر ، وكان عليهم أن يتذكروا دائما ـ هكذا علمهم زهاتوبولك ـ أنه لا حفاظ على امبراطوريتهم الا بالتفوق فى ميدان القوة ، وأن كل احساس كاذب بالأمن والطمأنينة قد جلب الدمار على كل جنس سبق أن كانت له السيادة ، ولذا وجب على النساء أن يكن تابعات خاضعات ، وأن يمارس الأزواج فى الدار أساليب الأمر والنهى التى سوف يحتاجونها فى العالم الخارجى ·

لقد روعى مبدأ عدم تعدد الزوجات بكل دقة ، ولم يسمح للرجال أو النساء بالانحراف عن سبيل الفضيلة ، ولم يكن الحب الآثم وحده هو الذى يثير السخط والاستياء ، بل كل ألوان الحب ، وكان الآباء يرتبون شئون الزواج ، أما اليتامى فكان الكهنة يتولون أمرهم · ولم نسمع قط أن رجلا أو سيدة تجاسرت على الاعتراض على هذه الأوضاع · فلم تكن الملذات غاية الحياة بل أداء الواجب نحو الدولة ونحو زهاتوبولك المقدس · وفى حالات الخيانة الزوجية جد النادرة كان الطرف المذنب يلقى الهوان ويطرد من البلاد ليعيش كعضو من عشيرة غير بيروية ·

ونادى زهاتوبولك بحتمية أن يظل البيرويون طبقة أرستقراطية حاكمة معتزة بنفسها ، وبألا يزيد عددهم بالسرعة التى يصبح معها الكثيرون منهم فقراء معوزين ، مع الاعتماد على موارد بيرو حيث أن السلطة ، وليست الثروة ، هى التى ينبغى أن تكون أساس تعاملهم مع العالم الخارجى · فما كان من مشرعهم الأقدس الا أن أصدر قرارا يقضى بأن ما يرزق به الوالدان من أبناء بعد الثلاثة الأول يؤكل بخشوع فى غضون شهر من ولادته ، ومن ثم يقيم الوالدان على براءتهما من هدف احداث عجز فى الموارد الغذائية كما أن ذلك رمزا لخضوعهما لزهاتوبولك كاله الخصب ·

وكانت هناك طائفة مجدفة لم يكتب لها البقاء طويلا ، ضللتها الفلسفة الانسانية المهزوزة ، آثرت تحديد النسل على أكل الفائض من الأبناء ، فكان رد القائد الأقدس أن تحديد النسل خطية ضد هبة الحياة التى يمنحها الاله ، على حين أن أكل الطفل يحيل جسده جزءا من حياة الوالدين التى منها انبعثت حياته التى تظل دائما ممتزجة بها امتزاجا

خفيا ، ومن ثم بات أكل الوالدين لطفلهما اجراء دينيا عميق المغزى اذ هو تجسيم لاستمرار تيار الحياة ، كما أنه لاقى قبولا من الجميع بلا استثناء ٠

واذا كان شعب بيرو قد شكل عنصرا أرستقراطيا بالنسبة للسلالات الأقل شأنا ، فقد وجدت طبقة أرستقراطية بين البيرويين أنفسهم، تقوم على الأصل والمقدرة فكان ينضم الى صفوفها أى فتى أو فتاة يكشف عن نبوغ حقيقى ، ومع ذلك جاء السواد الأعظم من أعضائها من سلالة القواد الذين قادوا قوات زهاتوبولك الى النصر فى حروبه العظيمة التى خاضها من أجل الحرية والفتوحات ٠ وكان رجال الدين ، من ذوى السيطرة والنفوذ ، يختارون جميعا من بين هذه الطبقة التى كانت تنعم فى بعض مناحى الحياة بقدر من الحرية لم يحظ به سواهم ، فكان بوسعهم ، مثلا ، أن يضاجعوا زوجات عامة الشعب دون لومة لائم ، كما كانوا يستثنون من القوانين الخاصة بالمأكل والملبس ٠

أما العقيدة الدينية فقد تبعت الى حد كبير ما كان سائدا فى بيرو والمكسيك قديما ، فارتبط زهاتوبولك فى الأذهان بالشمس ، وكانت أشعته المقدسة هى التى تهب النمو للنباتات ، كما كانت هنالك الهة تمثل القمر تحتل مرتبة أقل شأنا فى العقيدة ، مع أنها كانت تضطلع بدور هام فى السنة الزهاتوبولكية ، اذ فى بدء بزوغ أول قمر بعد الانقلاب الشتائى وفى اللحظة التى يلوح فيها كأن الشمس والقمر فى خطر من أن يفقدا فضائلهما المتعددة ، كانتا تستردان قوتيهما بفضل طقوس قديمة عندما يحل زهاتوبولك ، كاله للشمس ، لبرهة وجيزة فى الانكا الحاكم فى حين تتجسد الهة القمر فى عذراء يعرف الكهنة شخصيتها عن طريق بعض الرموز المقدسة ٠ وتتحد الشمس ليمنح كل منهما الآخر حياة جديدة ٠ كان الكهنة يقودون العذراء المختارة فى خشوع ووقار الى الانكا ، وبامتزاجه بها تسترد الشمس قوتها ، وتحقيقا للامتزاج التام كان الانكا يلتهم المرأة فى صبيحة اليوم التالى لأنها لم تعد تصلح للغاية التى كانت العذرية شرطا أساسيا لتحقيقها ٠ وعقب أداء هذه الفريضة المقدسة اثر الانقلاب الشتوى مباشرة يحل عيد الظهور ، وكان يوم عطلة عامة يرفع فيه ، لبرهة وجيزة ، الكثير من قيود التقشف ٠

ولم يكن امتزاج الانكا السنوى « بعذراء العام » يتم لغير الأهداف الدينية بطبيعة الحال ، فقد كانت له زوج سوف يخلفه ابنها الأكبر ٠ ولم

يكن بصفته الشخصية بل كممثل مؤقت لزهاتوبولك ، يضاجع السيدة التى كانت تكرم أثناء أداء تلك الفريضة ، كعروس لزهاتوبولك ومن كان يقع عليها الاختيار بين العذراء تحظى بأعظم تكريم ، ومن ينالها الشرف بين الأسـر يعلو شـأنها ، أما العروس نفسها فكانت تفيض غبطة وفرحا رغم ما كان ينتظرها من موت محقق · وان أروع ما عرف من الشـعر الغنائى ليس فى الواقع الا أناشيد النصر التى كتبت بلغة قديمة جافة تعبر عن فرحة العروس لمجرد التفكير فى أن المعدة المقدسة ستبتلعها ·

وحدث مرة ابان القـرن الأول من هـذا الحـكم ، أن وقعت حادثة مشينة هزت السلطة الحاكمة من أساسها ، عندما نصب أحد الرجـال « انكا » على البلاد فوقع فى غرام عروس زهاتوبولك وأبى ، فى عقوق ، أن ينحرها ويأكلها ، وأبقاها على قيد الحياة ، وجعل يوافيها فى الخفاء ، فوقع ما كان فى الحسبان ، ولم تسترد الشمس قوتها وباتت تشـرق كل صباح متأخـرة كعهدها فى فصـل الشـتاء · وأصيب الانكا المزعوم بالشيخوخة قبل الأوان ، فسقط شعره وأسنانه · وسـادت الحيرة وعم اليأس المصحوب بالشكوك القاتمة · وفى عيد الاعتدال الشمسى ، عيـد الربيع الذى أقيم فى موعده المعتاد برغم احتجاب الشمس طفق البرق يومض فى السـماء الصافية فصرع الانكا المزعوم وأرداه قتيلا · واتضح فيما بعد أن أمه كانت قد ارتكبت الفحشـاء ولم يكن من حقه أن يرتقى العرش · لقد كانت بعض الشكوك تداعب أفكار فريق من المفكرين ، فمـا لبثت أن تبددت بالطبع نهائيا ·

وكانت أراضى بيرو المقدسة تضم ما كان يعرف فى العصـر الأسبانى باكوادور وشـيلى ، وحين تحررت تلك المنطقـة ، اتخـذ زهـايوبولك الاجراءات الكفيلة بالحفاظ على نقاء الدم الهنـدى ، فاسـتؤصل البيض والزنوج ، وعقم المولدون · ومع ذلك أفلت بعض الذين لم يتكشف فيهم أثر الـدم الأجنبى ، فـكان يولد ، بين الفينة والفينة ، أطفـال يحمـلون سـمات البيض أو الزنوج · وكان أطباء الدولة يقومون بفحص جميع الأطفال الحديثى المولد فان ظهر مثل هذا الأثر تحتم على الوالدين أكلهم وتعرضا بدورهما للتعقيم ، ولما كان النظام لا يزال حديث عهد ، كان هذا الاجراء الصارم كفيلا بأن يثير السـخط والاسـتياء · ومن ثم حامت الشبهات حول أمثال أولئك الوالدين وخضـعوا لرقابة رجال الشـرطة وما كادت تمضى مائتا عام حتى اختفى كل أثر للدم الأجنبى ولم يبق فى طول البلاد المقدسة وعرضها سـوى الدم الهندى النقى ·

وأنتهجت سياسة رسـمية مغايرة فى خارج بيرو ، فكان شـعب المكسيك يعامل على قدم المسـاواة تقريبا مع البيروبيين ، فسمح لهم بتولى مناصب الجيش والحكومة ما خلا العليا منها وبشـرط أن يكون دمهـم نقيا ، وكان التعليم العالى متاحا لهم ، بل كانوا يقبلون فى جامعة كوزكو. ولم يحظ ماعداهم من الهنود بامتيازات مماثلة ، وان كان من المسلم به أنهم نالوا من المزايا ماهو جدير بالتقدير . أما البيض والصفر والسمر والسود فكانوا يعاملون كسلالات أدنى ويحاول المسئولون ، عن عمد ، الابقاء على حالتهم الدنيئة . حقا كانت هناك بعض الفوارق ، فقد كانوا يكرهون السود الذين لم يحدث أن قامت لهم امبراطورية ولكن دون أن يخشوهم ، أما البيض والصـفر ممن كانت لهم امبراطوريات عالميـة فكانوا مرهوبى الجانب ، وكان لا مناص من تدعيم ما يكنه البيرويون لهم من ازدراء وكراهية .

كان التعليم محرما على كل من ليس هنـديا ، وقضى على الجميع بلا استثناء ، بالعمل اليدوى عشـر سـاعات يوميا . وبينما كانت بلاد بيرو تحتفظ ببساطتها الريفية القديمة وتعزف ، فى حـرص ، عن كل ما يفسـد جمالها الطبيعى ، كانت بقية العالم تزخر بكل ما هو حديث فى ميدان الصناعة ، اعتقادا بأن المصـانع والمناجم وأكوام عوادم المصانع والأزقة القذرة والدخان الأسـود والقاذورات انما تتفق وطبيعة البـلاد الأجنبية . وآمن البيرويون — وجعلوا يلقنون العالم بأسره — بأنهم أبناء الشـمس وما عداهم من أجناس قـد خلق من الطين . واسـتغلوا كل ما نادى به زهاتوبولك عن تأثير الملذات الموهن للقوى فى الحط من شأن الشعوب غير الهندية التى ما كانت تفرغ من عملها اليومى حتى تتعرض لكل أنواع الاغراء على شـرب الخمـر والانغماس فى تعاطى الأفيون فيفقدوا صوابهم ، ولم يكن الزواج بينهم مباحا بل الاختلاط العـام . وحرم على الأطباء مقاومة الأمراض التناسلية التى انتشـرت من جـراء هذا الاختلاط ، وكان الموت عقابا للبيروى الذى تثبت عليه تهمة الاختلاط الجنسى مع من ينتمى لجنس أدنى . أما قوات بيرو التى تحتم وجودها لصون الأمن والنظام بين السـكان المتبربرين فكانوا يحاطون بكثير من العناية لكيلا يتدنسوا بما يحيط بهم ، فكانوا يشجعون على مشاهدة سكان البلاد الأصليين وهم يتناولون البقول اذ كان هذا المشـهد المقزز للنفس يثير حميتهم الوطنية الى أبعد حد . وكان من نتيجة الأمراض والافراط فى الشهوات أن أخذ سـكان العالم غير الهندى ينقرضون رويدا رويدا وطفق بعض الحالمين يتكهنون بعالم تطهر من جميع الأجناس خلا الجنس

الأحمر فى المستقبل البعيد ، عندئذ تتحقق بين الناس المساواة التى لا يسمح بها فى الوقت الراهن • ومع ذلك كانت تلك الأحلام الممعنة فى الخيال ضربا من المخاطرة ، من أنغمس فيها نظر اليه بعين الريبة والشك • أما حكام البلاد الأجنبية ، فكانوا ينتخبون بحذر ودقة ، فقد دلت التجربة على أن من بطبيعتهم عنصر من عناصر القلق وعدم الاستقرار كانوا عرضة لمختلف أنواع الاضطرابات العصبية • لقد كان بعضهم يلجأ الى أساليب العنف مع المواطنين بلا مبرر ، كما يسعى البعض الآخر وهم الأشد اضطرابا ، الى أن يعقد معهم صدقات ويعاملهم على قدم المساواة ، كما وجدت شرذمة من الحكام آمنت بأخوة البشر جميعا ، واكتشفت وثائق أثرية ترجع الى العصر الأغريقى ــ اليهودى تؤيد هذه النظرية المستهجنة • واقتضى الأمر أن يؤخذ أولئك الحكام بالشدة والعنف وأن تعقد كلية التعليم فى كوزكو دراسات من شأنها أن تدفع هذا الخطر ، وبمرور الزمن تضاءلت حدة هذا الخطر بفضل نجاح الأساليب التى انتهجتها الحكومة فى حمل المواطنين على الانحطاط شيئا فشيئا حتى صاروا أشبه بالحيوانات . وهكذا غدت سيادة البيرويين بعد بضعة قرون راسخة لا تتزعزع •

الفصل الثالث

الثلاثى

استمرت محاضرات بروفسور دريوزد ستادز طوال العام الدراسى وأثارت بين توماس وديوتيما مناقشات حامية كان لصديقتها « فريا » فيها نصيب ضئيل ، وأخذت ديوتيما تحس بتأثير المحاضرات من ناحية وقراءة التاريخ القديم من ناحية أخرى ، تحس بمعضلات أثارت دهشتها وبعثت الحيرة والقلق فى نفسها • فلم تكن على يقين من أن أكل لحوم البشر أمر ضرورى أو مرغوب فيه ••• لقد أوضح بروفسور دريوزدستادز أن تشبيه العروس بالقمر ينبغى ألا يفهم حرفيا ، فما هو الا تشبيه رائع جميل • وفى صبيحة أحد الأيام راودت ديوتيما فكرة رهيبة وطفقت تتساءل : « ترى ، اذا كان الارتباط مجازيا لم لا يكون أكل

العروس كذلك ؟ ألا يمكن لتمثال من كعك الجنزبيل أن يقوم مقام العروس الحية ؟ وهنا أحست الدم يتجمد فى عروقها من جراء التفكير المشـوب بالتجديف ، وارتعدت أوصـالها وامتقع لونها ـ فتساءل توماس الذى كان يجلس الى جوارها ، فى دهشـة عما جرى ! فأدركت ديوتيما أنه ليس من الحكمة بمكان أن تبوح بما يجول بخاطرها لأنه فكر عابر فحسب ، ولكن الوسـاوس راحت تترى ·· وفى مكتبة الجامعة عثرت على كتاب قديم علاه التراب ، يلوح جليا أن يدا لم تمتد اليه منذ أمـد بعيد ، كان الكتاب يحوى بين ضفتيه أعمق تأملات العصور المظلمة التى سـبقت ظهور زهاتوبولك المقدس ، وارتاعت اذ كانت ضاربة فى القدم ، فقـد سـبق بعضها بزوغ فجر الفلسفة الاغريقية ـ اليهودية · لقد عثرت على نظرية تقضى بألا يقصـر المرء عطفه على بنى جنسـه بل ينبغى أن يتعداه الى سـائر أجناس البشـر · كما اكتشفت أن فى الزمن الغابر كان الناس من غير الجنس الآخر تتملكهم أفكار ويفوهون بكلمات لا تقل حكمة وعمقا عنها فى عصـر زهاتوبولك · وبدأت تتسـاءل عما اذا كانت وحشـية البيض والسمر ـ كما تعلمت ـ تعزى الى دناءة متأصـلة فى طبيعتهم أم أنها نتاج التنظيمات التى خلقتها السياسة البيروية فحسب ·ولم تفصح كثيرا عن تلك الشـكوك التى سـاورتها لكن بعضها تكشف من خـلال حديثها الحذر ·

لقد أقلقت حالتها الفكرية بال توماس الذى بلغ اعجابه بها حدا أقام معه وزنا لكل كلمة تنساب من بين شفتيها ـ ومهما يكن مقدار ما تسببه له من انزعاج ، فلم يكن فى مقدوره أن يبعد شكوكها المبهمة الغامضة كما يدفع عنه ما يسـاور زميلا آخر ، لكن برغم ما استبد به من القلق فقد ظل ايمانه راسخا ، ظنا منه أنه لولا النظام الصارم للعقيدة الزهاتوبولكية لانهـار المجتمع وعمت الفوضى · كان يخشى أن تفقد الحضـارة خير ما فيها اذا اندلعت نيران الحرب الشاملة بالصورة التى تراوده · فماذا ، ياترى، يكون مصير العلم والفن ؟ ومالذى ينتظر الحياة العائلية المستقرة ؟ وهل من وسيلة تقى من الدمار الشـامل الذى تسفر عنه المعارك التى تجتاح العالم بين الشيع المتطاحنة ؟ فتلك المخاوف جميعها ، كما تبدت له ، لم يحل دونها غير الاستقرار الراسخ للعقيدة التقليدية ··· فلو تغلغل الشك فى أدنى تصدع لانهار الصرح بأسره وخيم على العالم ظلام ثقافى دامس وانحدر الناس فى كل مكان الى درجة من الانحطاط كتلك التى عليها أحط الشعوب الخاضعة حاليا · كانت فرائصه ترتجف وترتعد من مثل هـذه

الأفكار كلما كشفت ديوتيما ـ وان حدث ذلك للحظات وجيزة وعن غير قصـد ـ عن آرائها الجديدة العارضة ·

ودأب يقول : « حذار يا ديوتيما ! انك تبدأين رحلة ذهنية خطيرة ·· رحلة لا تؤدى الا الى هوة سحيقة معتمة سوف تبتلعك ما لم تقفلى راجعة · ولست أبغى أن أراك تسيرين على هـذا الدرب وحيدة لـكن لا سبيل الى مرافقتك وان كنت أحبك حبا جما » ·

كانت فريا تشـهد أحيانا تلك المناقشات ، وان تعذر عليها تقدير خطورتها ، وكانت تعتز بديوتيما ، التى كانت ترتبط بها منـذ الطفولة بذكريات عديدة مشتركة · أما توماس ، الابن النابه لأب نابغة ، الذى كان يرجى ـ وهو أمل راود الجميع بلا استثناء ـ أن يحمل رسـالة الثقافة الزهاتوبولكية التليدة ، فقد حظى ، ولا غرو ، بتبجيل تلك الفتاة التى كانت تقدس كل ما هو ثابت راسخ البنيان · ومع ذلك كانت أقل اضطرابا مما كان ينبغى أن تبدو عليه ، اذ كانت تقضى جل وقتها فى هيام صـوفى أشبه ما يكون بحلم ، وكل مالم يتفق مع هذه الحال بدا لها وكأنه ضرب من سـوء الفهم ، وعندما كانت ديوتيما تفوه بما يلوح هداما ، تبسمت فريا وقالت بلطف « انك ، بالطبع ، ياعزيزتى لا تعنين ما تقولين » · ولم تكن ديوتيما ترى من اللائق أو الممكن أن تعكر صـفو معتقدات فريا ، فتظاهرت بالاذعان كما لو كانت منهمكة فى تسلية فكرية ليس الا ·

كانت أسـرة ديوتيما تنتمى الى أعرق الطبقات الأرستقراطية فى بيرو وأرفعها شـأنا ، وقد تولى أحد أسلافها قيادة أكبر جيوش زهاتوبولك فى حرب التحرير، وظلوا عنجدارة يتبوأون تلك المكانة المرموقة عبر قرون متعاقبة ، كما اختيرت عروس الشمس من أسرتهم مرات عديدة ، وكانت صـور تلك العرائس تطوق دائما بجدائل الريحان الخضـراء الناضرة وتحتل مكان الصدارة فى قاعة طعام الأسـرة · أما قصـرهم المنيف فاتخذ مكانه فى أرقى أحياء كوزكو بحديقته الغناء التى كانت أزهارها المختلفة تملأ جانب التل المنحدر بالروائح العطرة ، وتزينه بألوانها البديعة ·

وكانت أسرة فريا بدورها أرستقراطية وان لم تكن على هذا الشـأو من العظمة ، أما توماس فقد تسنى له أن يندمج فى تلك الأوسـاط الراقية بفضل ما ينعم به أبوه المرموق من عقل راجح وما يؤديه من خدمات جليلة· ولعل موقف الأسـر العريقة من أمثاله كان ينطوى على كل شىء من

المجاملة ، لكن الحكومة كانت تعترف بأن استقرار نظام الحكم يتطلب خدمات أفضل العقول المفكرة بلا انقطاع · وأوحت السياسة بأنه لا غبار فى التقبل الاجتماعى لأولئك الذين ارتقوا على هذا النحو سلم الطبقات الاجتماعية · فلم يكن مثارا للدهشة اذن ـ عندما ذكرت ديوتيما لوالديها صديقيها توماس وفريا ـ أن أصرا على دعوتهما ليفحصاهما ويحكما عليهما بمقتضى المقاييس الحكيمة التى طورتها أجيال من السيادة · وقلما أفصحت ديوتيما لوالديها عن أفكارها الدفينة ، لكنهما استشفا منها جموحا فكريا رثيا له كل الرثاء ، وبدا أن من عادتها الذميمة أن تدع الجدل يقرر النتيجة بدلا من أن تحدد النتيجة أولا ثم تطوع المناقشات حتى تتواءم معها ، وشعر الوالدان بأن هذا الاتجاه انما ينطوى على الفوضى والخطورة ، لكن رغم ما كان يقلقهما من تأملاتها الجامحة (التى كانت فى الواقع أشد جموحا مما كانا يعلمان) كانا يعتقدان أنها مجرد حماس شباب متأجج سوف يخمده القليل من اختبار العالم الواقعى · وطابت نفساهما بصداقتها لفريا التى شهد لها كثيرون من الأصدقاء المعروفين بالتقوى المثالية · وأحيانا كان الأسى يستبد بهما ، اذ لم تكن ابنتهما تشبه هذه القديسة التى لا تثير المتاعب لأحد ، بيد أن شهادة المعلمين لقدرات ديوتيما العظيمة ورغبتها الملحة فى الدرس والتحصيل خففت من حدة مخاوفهما ، وأحسا بأن الزمن كفيل بأن يكشف لها أن الذكاء ليس كل شىء ، كما سيزودها بذلك الحماس الأخلاقى الذى يبدو أنها تفتقر اليه فى الوقت الراهن · وكان توماس ، تعززه سمعة أبيه الطيبة وسجله الخاص الحافل، عين الصديق الذى يتمنيانه لابنتهما · وكل ما كانا يأخذانه عليه هو اشتهاره بالذكاء اللماح ، اذ لم يكونا يعتقدان أن ابنتهما فى حاجة الى تطوير فكرها · لكن من كل ما عرفاه عن توماس فان ذكاءه لم يمض به الى أبعد مما ذهب اليه أبوه ، وأديهما كل ما يدعوهما الى الأمل فى أن يكون عامل استقرار للنظام الاجتماعى كعهدهما بأبيه العظيم · تلك هى الاعتبارات التى حدت بأم ديوتيما الى دعوة فريا وتوماس لتناول الشاى على مائدتها ·

كانت أم ديوتيما ، كمضيفة ، جوادا تتوق الى أن يكون ضيفاها على سجيتهما ، وان تعذر عليها التخلص من مظهر العظمة الذى بعث الرهبة فى نفسيهما فى بادىء الأمر ، فكان حديثها معبرا وأحاسيسها صادقة ، ولم تغفل قواعد اللغة وسلامة الألفاظ ، وأى رأى ينحرف ، ولو قيد أنملة ، عن جادة الصواب لم يفلت ، على الأقل ، من لوم تعبر عنه برفع حاجبيها · أما ديوتيما فلم تقم وزنا يذكر لمحرمات أمها

الاجتماعية ، فكان حديثها طلقا بحيث جاءت بعض كلمـاته من البراعة بمكان ، بينما اصطبغ البعض الآخر بالعامية ، وكانت تطلق العنـــان لسرعة بديهتها فكانت تجود فى بعض الأحايين بما هو مستهجن ، وتارة تسخر بالبارزين من أصدقاء أبيها ٠

قالت أمها : « انك ، ياعزيزتى ، لن تحصــلى على زوج مادمت تستخدمين مثل هذه العبارات المستهجنة ولا تبدين الاحترام اللائق بمن يكبرونك ســنا » ٠ ولما بدا لها أن ديوتيما تحسن الظن بتوماس وحداها الأمل الى أن يحد من جرأة ابنتها المفرطة استدارت نحوه قائلة : « اننى على يقين يا توماس من أن بروفسور دريوزدستادز لا يقبل هذا التصرف ، أليس كذلك ؟ » ٠

وأحس توماس بحرج شــديد لا يطاق ، فقد كان متفقا بينه وبين نفسه مع مضيفته ، بيد أن الوفاء لم يدعه يتخلى عن ديوتيما ، فتدخلت فريا لانقاذ الموقف وطفقت تهيم بجمال المكان ٠

قالت : « ياللســعادة التى تنعمون بها حين تجلسون فى هذه الحديقة الغنـــاء تتأملون تلك الثلوج الخـــالدة وتدركون أن مملكتنا المقدســـة سرمدية سامية كتلك القمم الشماء ! ٠

وشاركتها أم ديوتيما تلك المشــاعر وان ساورها الشك فى أنه من دواعى الذوق السليم أن تعرب عنها ، فلا غبار على حماسها ، لكن ينبغى أن يظل دائما فى حدود الآداب واللباقة ، وبينمـــا كانت تتردد فيمـــا عسى أن تكون عليه الاستجابة الملائمة لهــراء فريا ، اندفعت ديوتيما تقــول : « هيا ! هيا ! يافريا ، فالقمم ليست بخالدة لأننا نعلم من الجيولوجيا أنها تكونت بفعل هزات أرضــية عنيفة ، بل وسوف تدكها يوما هزة عنيفة أخرى ٠ ألا تخشــين أن يكون فى مقارنة النظام الزهاتوبولكى بتلك الكتل الصماء الشاهقة ضرب من التجديف ؟ » ٠

كان صدى تلك العبارة صــمتا أليما حاول توماس أن يخفف من وطأته اذ قال : « آه ، ان ديوتيما تســتثيرنا فحسب ، وأخشى أن مزاحها يذهب مع خيالها بعيدا فى بعض الأحايين » ٠

فقالت أمها : « حسنا ، أرى ألا تقســو عليها كثيرا ، انى أذكر كيف كان أبوهـــا العزيز ، الذى بلغ الآن كل ما أتمناه من رصـــانة واتزان ،

يضايقنى فى فجر حياتنا ، بالثرثرة حول البارزين من الجيل السابق ، وسوف تتعلم شأنها فى ذلك شأننا جميعا » ٠

وبتلك الملاحظة التى خففت من حدة الموقف انفضت الجماعة ٠

وما أن وجد الشك له مقرا فى أفكار ديوتيما حتى أخذت الاكتشافات العديدة تثبته وتؤكده ، فان الكتاب الأثرى الذى وقع بين يديها زودهـا برغبة فى البحث فى أجزاء من مكتبة الجامعة قديمة تراكم فوقها الغبار على نحو حال دون ارتيادها ، وفى أحد هذه الجوانب عثرت على رواية معاصرة عن الانكا الشرير الذى تخلى عن واجبه فى التهام العروس المقدسة ، واستبان لها أنه كان للانكا فى ذلك الحين مشايعون عديدون راحوا يؤكدون أن عجز الشمس فى أن تسترد قوتها لم يكن الا ظاهريا ، وأن الكهنة هم الذين أوحوا بتأخير الساعات العامة نهارا وبتقديمها ليلا فبدت كما لو أن النهار لم يطل والليل لم يقصر ، واعتقدوا أن سقوط شعر الانكا وأسنانه لم يكن الا بفعل سم بطىء ، وأن البرق لم يرده قتيلا بل ومضة انبعثت من عمودين كهربائيين يحملان شحنة عالية ٠ وكان من الطبيعى أن يقاوم خليفته ذلك الفريق من المشايعين ويقضى عليهم بعنف بالغ ٠ وتبينت ديوتيما أنه قد استخدم ضدهم الاضطهاد والقمع لا الحجة والاقناع ٠

ولقد وجهت الى ايمانها المترنح ضربة أخرى ، بغير وعى ، من أحد أعمامها الذى كان يشغل منصبا مرموقا فى حاشية الانكا ٠ فذات يوم أصيب هذا الرجل بمرض عضال ، وفى هذيانه فاه بأمور كثيرة حسبها من سمعوها هلوسة مجنونة ، أما لديوتيما ــ التى كان من واجبها أن تقوم بتمريضه أحيانا ــ فقد بدت أوهامه المحمومة وكأنها تنطوى على عين الحقيقة ٠

كان ينفجر ضاحكا ثم يقول : « ها ، ها ، يخال الناس أن الكهنة هم الذين يختارون العروس المقدسة ، وكم يفجعون لو تبينوا أن خصيان الحاشية هم الذين ينتقونها كأفضل فتاة تشبع شهوات الانكا ونزواته ! »٠

وكان خصيان الحاشية فريقا من الرجال ، وظيفتهم الرسمية ترتيل التراتيم القديمة للشمس فى المعبد الفخم ، مركز عقيدة زهاتوبولك ، فكانت أصواتهم الحلوة التى تسلب الألباب تملأ السامعين جميعهم بما

كانوا يحسبونه الروح المقدس · وبينما هم ينصتون فى خشوع كانت قلوبهم ترتفع نحو السماء ويلوح وكأنهم يبلغون درجة من التجلى والاتحاد مع الاله · وكم كان مريعا أن يتصور المرء أولئك الرجال قوادين يرتدون قناع الدين الخادع · لكن ما حمل ديوتيما على هذا الاعتقاد هو هذيان عمها المضطرب ·

وولد هذان الكشفان عن الاحتيال باسم الدين – أحدهما وقع منذ زمن طويل ، والآخر يتكرر عاما بعد آخر الى هذا اليوم – فى ديوتيما نفورا شديدا ، وان لم تظهر منه ، فى الوقت الراهن ، سوى النزر اليسير ، فكانت فى حديثها مع توماس تحتفظ لنفسها بأخطر أفكارها يحدوها الأمل فى أن تقوده برفق رويدا رويدا الى الاقتناع بأسلوب تفكيرها ، ادراكا منها بأن أية صدمة سابقة لآرائها قد تنفره منها · لقد كانت فريا برغم جمالها الأخاذ أشد غباء وتفاهة من أن تحرك فى توماس مشاعر عميقة ، أما ديوتيما فقد وجدها جذابه مثيرة حقا لكنها مخيفة فى الوقت ذاته ، كان يحس معها بنشوة من يتسلق قمة جبل ثلجى منحدر خطير · فلم يكن قادرا على الابتعاد عنها أو الاذعان لها أو هجرها الى غير رجعة ···

الفصل الرابع

فريا

كان الثلاثة يجلسون ذات يوم بجانب مجرى جبلى غارقين فى نقاش عميق ، واذا ببصر ديوتيما يقع على رجلين يختلسان النظر اليهم من خلف الأشجار تبينت من زيهما ، أنهما من خصيان الحاشية · كان أحدهما يشير الى فريا والآخر يومىء برأسه فى حزن وكآبة · ولم ير رفيقاها ذلك المشهد الذى بدا مغزاه واضحا فى ضوء ما أماط اللثام عنه عمها ، وسرعان ما امتقع لونها وقالت فى صوت خفيض : « فلنعد الى المدينة » · فتساءل الآخران : « ماذا دهاك ؟ » · ولما بلغوا مكانا آمنا راحت توضح لهما أنها تعلم أن فريا ستكون العروس المقبلة

لزهاتوبولك · فسألاها : « وكيف علمت ذلك ؟ » فأجابت : « ذلك مالا أستطيع توضيحه الآن ، لكنكما ستتبينان أنى على صواب » ·

ولم يمض وقت طويل حتى أعلن على الملأ اختيار فريا · فغمرتها الفرحة العارمة واختبرت كل ألوان المشاعر التى كانت تنسب ، أيام الفلسفة الاغريقية اليهودية ، للسيدة العذراء فى عيد البشارة ، وارتجفت ديوتيما واهتز كيانها ، ولم تحل العقيدة الدينية دون الاحساس بأن صديقة عمرها ستقاسى من مصير رهيب ، أما توماس فكان يدرك ، بالطبع ، أن مشاعر ديوتيما ليست ما يتطلبه الايمان الصحيح ، ولم يعتقد أنها محقة فى ذلك ، غير أنه لم يقو على احتمال ما يولده التفكير فى أنها مخطئة من ألم · وغمرت الغبطة والدى فريا ، كما هو منتظر ، بنوال اسرتهم هذا الشرف العظيم · وطفقت أم ديوتيما تهنئها لصداقتها بفريا وتتباهى بهذه الصداقة أمام كل زائريها ، وما أن مضت أيام معدودة على الاعلان حتى أبعدت فريا عن الأمور الدنيوية وخضعت لعملية التطهير والتقديس الطويلة التى تسبق زفافها ، فبكتها ديوتيما · وعبثا حاول توماس أن يغتبط بما أسبغ عليها من شرف ، وبذلت ديوتيما ، التى مابرح الأمل يحدوها الى تغيير توماس كلية ، قصارى جهدها حتى لا تؤدى خلافاتهما الى القطيعة ، وظلت الأمور بينهما على ما هى من شك وترقب طيلة أشهر اعداد فريا ·

وبتأثير النظام الذى طوره الخصيان المقدسون شيئا فشيئا عبر القرون حتى بلغ مرحلة الكمال ، انغمست فريا رويدا رويدا فى هيام روحى ، وعاملها الخصيان القائمون على أمرها كما لو كانت كائنا الهيا فأتوا لها بالثياب الفاخرة التى لم تكن ترتديها غير عرائس زهاتوبولك عند تزينها ، كما كانوا يقودونها كل صباح ، وعند بزوغ الشمس تماما ، لتسبح فى نبع مقدس كان من يدنو منه غير عرائس زهاتوبولك يصيبه الموت المحقق · وفى معبد مرصع بالجواهر تتلألأ جدرانه بحجارة الفسيفساء التى تصور حياة زهاتوبولك الأرضية ، راحت تصغى الى الترانيم المقدسة التى كان الخصيان يرتلونها بأصوات طابعها النقاء الروحى ، كما كانت تغتذى طعاما خاصا مغايرا لما يتناوله العاديون من الرجال والنساء ،وتزود بدواوين الشعر القديم الذى يتغنى بغبطة القمر وهو فى أحضان الشمس ، وبصور لزهاتوبولك وعروسه فى احتضان عاطفى مقدس · وفى عالم الأسطورة القديمة والطقوس كادت ذكريات حياتها اليومية السابقة تختفى ، فكانت تتحرك وتتنفس وكأنها فى حلم ، ولاح لها أن روح الالهة تمتلكها شيئا فشيئا ويوما بعد يوم ·

وأخيرا حلت الليلة العظيمة ، فارتدت ثوبا أزرق براقا تزينه نجوم لا حصـــر لها ولا عدد ، وأمسكت بيدها شعلة ملتهبة وأخذت تهبط ببطء السلم المقدس المفضى الى الانكا المترقب ، وفى طريقها اليه انطلقت ترتل ترنيمة ضاربة فى القدم ، عذوبتها تأخذ بالألباب • ولما فرغت من المقطع الأخير كانت قد بلغت نهاية السلم فألفت أمامها الانكا الذى طال انتظاره •

ومع أن الانكا كان رجلا ذا شفتين غليظتين وأنف مفلطح وعينين أشبه بعينى خنزير غائرتين فى شحم ، فقد بدا لناظريها كائنا مقدســـا جديرا بأن يحل فيه زهاتوبولك • وأمسك بها فى عنف ، وهو يقول :«والآن هيا انزعى هذا الرداء ، فلا تتركينى أنتظر طوال الليل » • وأحست بأنه هكذا يســلك الاله ورحبت بالفرصة التى فيها تتواضع أمامه ، وما أن فرغ من أداء الفريضـــة حتى أخذته سنة من النوم وراح يغط بينما مضت هى تتأمل فى خشوع هيئته وهو فى سبات عميق • وعند منتصف الليل فتح الكهنة فى هدوء تام بابا سريا وأومأوا لها فتبعتهم على مهل ،وهى نشوى ، الى حيث تلقى حتفها •

واستقظ الانكا فى الوقت المعين وهبط لتناول افطاره ، وعند أول قضمة جعل يتمتم : « حسنا ! لقد طهوها على نحو أفضل هذا العام على أية حال ! » •

الفصـــل الخامس

ديوتيمـــا

بعد أن اقتادوا فريا الى التأليه والموت تغيرت حال ديوتيما ، ففاضت ذكاء ومرحا وأحبت التســلية الفكرية ، وانطلقت تتـــابع أية محـــاورة أو جدل ، مهتمة بالمنطق أكثر منها بالاعتبارات الاجتماعية ، ومع ذلك باتت تحت وطأة تأثير فقدان فريا تضيق ذرعا بما تمخض عن المعتقدات الكاذبة من آثار اجتماعية • ولم تعد تصـــدق كلمة واحدة عن العقيدة الرسمية ، وأدركت بوضوح وجلاء أن زهاتوبولك لم يكن ســـوى انسان

عادى ، وأن عقيدته عن سيادة شعب بيرو ما هى الا تجسيم للغرور القومى . وسرعان ما بدت لها الطقوس المرتبطة بالانقلاب الشتوى سخيفة قاسية وأحست أن فريا لم تقدم قربانا لاله بل راحت ضحية اشباع شهوات وحش كاسر . بيد أن الثورة ضد نظام هكذا تأصلت جذوره ، لم يكن بالأمر الهين . فظل نشاطها فترة من الزمن قاصرا على المناقشات السرية وكلما اكتملت الثورة فى أفكارها ، زادت قدرتها على قمع مظاهرها الخارجية ، فحدا توماس الذى كان يرهب ثورتها ، الأمل فى أنها قد أخذت تهدأ ولما كان يحاورها ضد بذور الشك الأولى التى كانت تكشف عنهافى بادىءالأمر لمتكن تفند آراءه ،فتوهم أنه قدأقنعهاورأت أنه يحبها وكان بوسعها أن تبادله الغرام لولا احساسها المتزايد بأنها قد كرست نفسها لمهمة على قدر مروع من الصعوبة ، ذلك الاحساس الذى حملها على أن تعيش فى عزلة وحال دون اذعانها بكل قلبها لأية عاطفة نحو انسان مجرد ، وشعر توماس بكبريائها الذى كان مبعث ضيق وألم لنفسه . لكن سرعان ما أتى اليوم الذى قررت فيه أنها لم تعد قادرة على أن تخفى عنه آراءها التى ملكت عليها كيانها ...

وفى فجر أحد الأيام كان توماس وديوتيما يسيران معا فى أحد اودية « الآنديز » العميقة وتحت أقدامها جمال أزهار الربيع الوفيرة الدفىء ومن فوقهما القمم الثلجية الشامخة تشق عنان السماء الزرقاء . وكان الظل لايزال يكسو معظم أجزاء الوادى ، لكن أشعة الشمس المشرقة الباهرة للابصار ، راحت تتسلل بين ظلال الجمال فبدت ملامح ديوتيما الحلوة الدقيقة لتوماس كأنها تجمع بين الجمال الدافىء من أسفل والسمو الرائع من أعلى ، واتحد منظر الطبيعة مع جمال المرأة ليولدا فىنفسه شعورا كاد يفوق النشوة والهيام. واشتعل الحب فى قلبه نارا،فكبح جماحه بما هو أقوى من الحب .... بالرهبة والدهشة والاحترام ، وأدرك ما يمكن أن يكون عليه الانسان ، وبدت كلمات الحب المألوفة عاجزة عن أن تعبر عما يجيش بصدره ، فسار لبرهة فى صمت واجف ، ثم استدار نحوها وقال : « لقد بدأت أدرك فى هذه اللحظة كيف يعيش المرء حياته » .

فقالت : « أجل ! ينبغى أن تكون ناعمة جميلة كالزهور ، راسخة شامخة كقمم الجبال ، عميقة وبلا حدود كالسماء . هكذا يمكن أن تكون الحياة . لكن ليس وسط ما يسود مجتمعنا من بشاعة وفظاظة » .

فصاح توماس : « بشاعة وفظاظة ! ماذا تعنين ؟ » •

قالت : « ثمة بشاعة حين يسمح لمجرد انســان أن يرتكب الموبقات اعتقادا بأنه اله » •

وما أن تناهت هذه الكلمات الى سمع توماس ارتجف وطار لبه وراح يتســاءل : « مجرد انســان عادى ؟ انك • بالطبع لا تقصــدين الاله زهايوبولك » •

فقالت : « هذا ما أعنيه ، فما هــو بإله • فالأســطورة التى تعظمــه وترفعه الىمصاف الآلهة هىوليدة الخوف : الخوف منالموت، ومن ضربات القدر ، ومن قوى الطبيعة ، ومن طغيان الانســان واستبداده • فمن تلك القمم التى فوقنا ينحدر الموت الخاطف الى الوديان تحتها من حين لآخر ، فيتملك الناس الاحســاس بأن القوى التى تحكم فى القمم قاسية عنيفة ولا يمكن اخماد حقدها الرهيب بغير قســوة طابعها العطف • بيد أن الخوف بشتى ألوانه دفىء ، والأســاطير التى تتمخض عنه حقيرة ، وس تعظمهم الأســاطير من الرجال أدنياء • فزهاتوبولك ليس الها ، بل انسانا أخرق وأحط من الحيوانات الضــارية فى شتى المناحى • والفريضة التى قدمت فريا بمقتضاها قربانا ليست من مصــدر الهى ، بل وليس ثمة ماهو من مصدر الهى • فما الآلهة ســوى ظلال لمخاوفنا فوق عتمة الليل ، انها تجســد ضعف الانســان أمام القوى التى بوسعها أن تجهز عليه ، كما أنها تجسم الاستعباد للزمن فيتعذر تقدير اللحظة الأبدية ما دامت فى نظامنا الدنيوى لحظة فحسب • اننى لن أذعن للاذلال ، ومادمت على قيد الحياة سأقف شــامخة كالجبل ، فان أدركتنى البلية ، وهى آتية ولا ريب ، فلن تكون ســوى مأساة ظاهرية ، وستبقى قلعة ايمانى بما يمكن أن يحدث فى المستقبل » راسخة لا تقهر » ••

بدا توماس ، وهى تتحدث ، كأن صراعا رهيبا يمزقه الى شــطرين ، شطر ألهيته كلماتها وتمنى لو وافقها ، وهو الجانب الذى كان يبدو منذ هنيهة مرتبطا بها فى وحدة سامية تجل عن الوصف ، لكن جانبا آخــر ، بنفس القوة ان لم يفقه ، كان يقف لها بالمرصاد ، فكل ما تعلمه ما عرفه عن المجتمع الذى يعيشان فيه ، وكل مشاعر الرهبة والجلال التى غرست فى نفسه منذ نعومة أظفاره هبت تناهضها ، كما ملأه العالم الجامد الملحد الذى راحت ترســمه برعب بالغ • وأحس بأن الها ، قد يكون قاســيا

لكنه ليس بغريب علينا تماما مادام قد جرب مشاعرنا ومر بتجاربنا ، لهو أفضل من عالم فسيح لاحياة فيه يخلق ويبيد دون تفكير · وبلا اكتراث ببنى الانسان الذين خلقهم عن غير ذى قصد ، وسوف يهلكهم بلا ندم · كان هذا الرعب المريع الذى استولى على توماس فى الوقت الراهن يفوق حبه لديوتيما فاستدار نحوها ، وقد شحب لونه وارتعدت فرائصه ، وقال : « حاشاى أن أرحب بعالمك ، فأنا لا أقوى على الحياة مع أفكارك فلا أستطيع أن أذكى لهيب الحماس الانسانى المتراقص وسط هذا التيار الجارف البارد من القسوة غير المحدودة ، فان كانت غايتك تدمير عقيدة آبائى تحتم على كل منا أن يسلك سبيله » ·

وسار الاثنان على مهل ، يخيم عليهما الصمت ، حتى بلغا الدار الوحيدة بالوادى حيث وجدا خصيان الانكا فى الانتظار · فابتدروا ديوتيما بقولهم : « لقد وقع الاختيار عليك » وحملوها بعيدا · وراح توماس يحملق ببصره خلفها حتى غابت عن الأنظار · لكنه لم ينبس ببنت شفة ولم يبد حراكا · وأبلغ اختيار ديوتيما كعروس العام رسميا لوالديها ولبروفسور دريوزدسادز ، لتبرير سبب انقطاعها عن الدراسة · وتمشيا مع عادة ضارية فى القدم ، أقام والداها حفلا مهيبا بمناسبة ما أسبغ على ابنتهما من مجد وشرف · وجاء الى الحفل علية القوم فى كوزكو ، يحملون هدايا الزفاف ويلقون كلمات التهنئة · فتقبلت أمها الهدايا والخطب بتواضع جم ظاهرى ، واحتفظ أبوها ، وقد وقف منتصب القامة بهى الطلعة ، بطابعه العسكرى حيث وارى غبطته بلباقة · ولاقى الحفل نجاحا منقطع النظير ، وأحست أسرة ديوتيما بأنها أضحت أكثر مجدا ورفعة عن ذى قبل ·

وأحس البروفسور أن حظا من مجد تليمذته ديوتيما قد ناله ، ولامراء فى أن الهة القمر قد لاحظت أن ديوتيما أصبحت جديرة بأن تكون أداة لتجسدها بفضل تأثيره ، وطفق يهنىء ابنه على صداقته للعروس المجدة · لكن شيئا من القلق والاضطراب تسرب الى نفسه حين لم يبد جذلا بالقدر الذى تمليه المناسبة ، غير أنه فى بادىء الأمر أخذ يطيب خاطره بالقول أن الشعور بشىء من الأسى لفقدان رفقة ديوتيما قد يغتفر لشاب كتوماس ، وان يكن ذلك مفجعا للاحساس الصادق الذى لا غبار عليه ·

لكن ما أن مضت أيام معدودة حتى انطلقت الشائعات المرعبة تنتشر بين الناس ، وسرى همس بأن ديوتيما لم تقبل الشرف بنفس راضية ،

وأنها ترفض القيام بواجبهـا فى طقوس التطهير ، وتنكر أى ادراك من جانبها لحلول اله القمـر فى جسـدها ، كمـا تقذف فى حق الانكا ، بل تعتقد ــ وياللعار ! ــ أن الشمس والقمر سيمضيان فى طريقهما المألوف بدون اقامة شعائر هذا العيد ٠

وا آسفاه ! لقد كان لتلك الشائعات أساس كبير من الصحة واستبد الفزع بالكهنة والخصيان حيث لم يقع شىء مماثل منذ أمد بعيد عنـدما عزف الانكا المزيف عن أكل العروس ٠ وفى حيرتهم رأوا مجاراة الظروف وأخفـوا عن الانكا تمرد ديوتيما ، وقرروا اسـتخدام كل ما يمكن من الضغط أملا فى ثنيها عن عزمها وحملها على الاذعان والانصـــياع ، ولتحقيق هذا الهدف راحوا يدبرون سلسلة من اللقاءات مع من ظنوهم أقدر الأشخاص على اقناعها ٠

كانت أولى تلك اللقاءات مع أمهـا ، التى كانت تبتسـم بالزهـــو والغطرسـة ، وتلوح رابطة الجأش رزينة قـادرة على التحـكم فى مشـاعرها ٠ أما الآن فقد تبدل ذلك كله وأحست بكل مهانة واذلال ٠ لم تقو على مواجهة العالم ، ولم تجسـر على مقابلة أصدقائها خوفا من النقد أو ــ وهو الأسوأ ــ من الرثاء لحالها ٠ لقد ألفت ابنتها فى زنزانة مكشوفة ترتدى ثوب التفكير وتعيش على الخبز والماء ، وراحت تتمتم بكلمات الحـزن والتقـريع المتقطعة وهى ترتجف من النحيب والدمـوع المنهمرة فوق وجنتيها ٠

قالت : « أواه يا ديوتيما ! كيف توقعين بأبيك وأمك هذا الخـزى المزرى الرهيب ؟ ألا تذكرين سنى طفولتك البريئة حين كنت تنمين ، بفضل رعايتى ، جسما وعقلا وتسمين بآمالنا المعقودة على مسـتقبلك يوما فيوما ؟ ألا تعطفين على الأسـرة الأبية التى ظلت عدة قرون تحمل لواء التاريخ فى هذه البلاد العظيمة ؟ وهل يهون عليك أن توقعى بمن أحبوك أبشع مصـير يحل بانسان ٠٠٠ أعنى العار الذى تجلبه علينا ابنة لا غبار عليها ؟ آه يا ديوتيما ، اننى لا أسـتطيع حمل نفسى على تصديق ما تناهى الى سمعى ٠٠٠ قولى انه حلم آثم عابر ، فيظل حبى لك كعهدك به من قبل ٠٠ » وهنا خنق النحيب صوتها فلم تفه بكلمة أخرى ٠

أما ديوتيما فظلت رابطة الجأش حتى فرغت أمهـــا من حديثهـا المتقطع ، ثم أجابت بكبرياء وفتور ظاهرى : « إن الأمر يا أماه ، لينطوى على ما هو أعظم من حب الوالدين وأرفع من شـرف الأسرة ، بل وأسمى

من هــذه الدولة التى ظلت راســخة زهاء ألف عام ، لأن هــذه الدولة المتغطرسة ــ وان كنت أعلم أنه يتعذر عليك التسليم بالحقيقة ــ قد قامت على الأكاذيب وأعمال العنف والموبقات • ولا يمكن أن يكون لى فى هذه الأمور ضلع • وان غدوت وكأن دموعك لا تحرك لى ساكنا ، فانما ذلك ليس عن فتور بل لأنه تشتعل فى أعماقى نار أخرى أعظم مما يطوف بخيالك • انه يتعذر عليك فهم ما أقول أو قبوله ، لكنى أضـرع اليك أن تنسى أنك ابتليت بمثل هذه الابنة » •

وفى حال من القنوط واليأس المطلق ، تحولت عنها أمها وتركتهـا وحيدة •

وبعد أن فشلت أمها جاءوا فى اليوم التالى بأبيها الى زنزانتها • وكان أسلوبه • مغايرا بعض الشىء لما اتبعته معها أمها •

وابتدرها بالقول : هيا ! هيا ! لم تبدين فتاة حمقاء عنيدة ؟ اننى أخالك مضطربة اذ تعلمت قبل الأوان وبســرعة فائقة أمورا قد عرفناها وسلمنا بها منــذ أمد بعيد ، نحن الذين نعيش بالقرب من الحاشــية • أتظنين أن العقلاء يصــدقون كل ما يتردد عن الشمس والقمر من هراء ، أو تتصورين أن الانكا الذى نعرفه جميعا ونمقته يصير الها مرة كل عام حسب التقويم ؟ نحن نعلم علم اليقين أنه ما من مشاعر دينية تلهمه ابان ما تسمى « بالليلة المقدسة » ، بيد أننا لا نقيم الأرض ونقعدها كما تهددين أن تفعلى ، ادراكا منا بأن تلك المعتقدات وان لم يكن لها أســاس من الصحة ، تخدم مصلحة الدولة • اذ تحمل على احترام الحكومة وتعيننا على صون الأمن فى الداخل وفى الامبراطورية فى الخارج • ترى ، ماذا تخالين سيحدث لو طفق الشعب بأسره يفكر على غرارك ؟ حتما ستقع الاضطرابات فى بيرو ، وستندلع نيران الثورات فى الخارج ، وســرعان ما يتصدع صــرح المجتمع المتحضــر بأكمله • يالك من فتاة طائشة ، اذ ترفضين أن تكونى قربانا للانكا ولم تدركى أن القربان الحقيقى هو لحفظ القانون والنظام واستقرار المجتمع ، وليس لأمير أخرق فظ ، انك تهذين بالحق ، فكيف للحق أن يصــون امبراطورية ؟ ألم يلقنك البروفســور أن الامبراطوريات جميعا وفى كل الأزمنة قد قامت على أكاذيب نافعة ؟ أخشى أن تكونى من دعاة الفوضى ، ولا تأملى فى رحمة الدولة بك مالم ترجعى عن غيك » •

فأجابت : « أبى ، أخاله أمرا طبيعيا ، فى ضوء ماالأسرتنا من تقاليد، أن تتخذ من دولة بيرو الها لك • كما أن التفكير فى نظام آخر للمجتمع خلاف الذى قضيت فيه حياتك كلها يتطلب خيالا خصبا • وأخشى . يا أبى ، أنك لا تؤمن بالخيال • اننى أرى فى أفكارى عالما أفضل من ذلك الذى خلقه جنسنا •• عالما أكثر عدلا وأعظم رحمة وأقوى حبا ، وفوق ذلك ، أشد تمسكا بالحق • ولعل الهزات العنيفة والاضطرابات الخطيرة كامنة فى الطريق الى هذا العالم الأفضل ، ولكن حتى هذه ينبغى أن تكون مفضلة على بشاعة ما نرتكبه فى الجهر والسر من نزق ورجس » •

وهنا استشاط أبوها غضبا وصرخ فيها بصوت مجلجل : « اننى أدعك لمصيرك أيتها الابنة العاقة الوقحة » ، ودلف الى الخارج حيث الشمس المشرقة • كان البروفسور هو التالى فى زيارة السجينة العنيدة، فدخل زنزانتها ، وكان يبدو دمثا رقيق الفؤاد ، وراح يخاطبها بلهجة حجبت رغبته فى اقناعها ما تتسم به من سلطان وقال : « ابنتى المسكينة! يؤسفنى أن أراك فى هذا المكان ، ولا يسعنى الا أن أعتقد أن جانبا من اللوم يقع على ، اذ كان ينبغى فى غضون العام الذى استمعت فيه لمحاضرات التفقيه التى ألقيتها على مسامعكم ، أن أفلح فى أن أنقل اليك فكرة عن الواجب الاجتماعى أكثر استقامة من تلك التى تدل عليها ورطتك الراهنة • لكن حدثينى يا ديوتيما عن العوامل والأسباب التى حدت بك الى الخروج على المبادىء التى وكل الى شخصى الضعيف محاولة تلقينها ؟ » •

فأجاب : « حسنا ، مادمت تسألنى فسأخبرك • اننى لا أؤمن بحقائقك ، ولا أصدق نظرياتك ، وأعتقد أن مفهومك للنفع الاجتماعى ضيق وايمانك بثبات العقيدة وعدم قابليتها للتغير جامد بالقدر الذى يقتل العقل والمشاعر سواء بسواء ، أرى أن لامبالاتك بالحقيقة تمرد ، وانصياعك للسلطان تملق ينم عن حقارة وخسة • الآن وقد أوضحت لك الحقيقة هاأنذا مستعدة لأن أسمع رأيك » •

وما أن تناهت هذه العبارات الجافة الى سمعه حتى حمى غضبه وانتابته لبرهة رغبة فى أن يقابل الاساءة بمثلها ، لكنه رأى فى ذلك منافاة لمبادئه • لقد كانت صريحة ، وأنحت جانبا الغموض والابهام على نحو لا يشعر معه بأسف بالغ • وقنعت بأن تقيم فى مناطق الحق المجرد التى

ما هى الا مراقى المبتدئين الى قمم الحكمة الشـــامخة ، وراح يحدث نفسه ، وقد كظم غيظه بمشقة ، أن الفتاة بادية الاعياء وأن غذاءها المكون من خبز وماء يثير سخطها ، فأسعفته خبرة العمر كمحاضــر فرد على هجومها العنيف ردا يثير الاعجاب اذا قورن بعظمته وحداثتها ٠

قـال : « يلوح يا ديوتيما » أن ثمـة أمورا لا تلمين بهـــا ، وهى ما ينبغى حتى فى هذه الآونة الأخيرة ـ أن أضعها أمامك بكل ما أوتيت من قوة ، وسأبدأ بما هو أساس لما عداه ٠ هل تنكرين ألوهية زهاتوبولك المقدس ؟ » ٠

فأجابت : « أجل ٠٠ لقد تعلمنا أنه نزل من الســماء بمعجزة ، لكنى أعتقد أنه هبط فى هليكوبتر من طائرة كانت تختبىء فوق السحاب ، قيل لنا انه لم يمت وقد صـعد بأعجوبة الى السماء حين أتم رســالته على الأرض ، وهذا أيضا مالا أصدقه ، فأنا أومن بأن زمرة خاصــة من قواده أحاطت به أثناء مرضــه الأخير وحالت دون اتصاله بالعــــالم الخارجى ، ولما وافته المنية ألقوا بجثته فى فوهة بركان كوتوباكسى ٠ ان الأساطير التى تميط اللثام عن هذه الحقيقة قد تناقلتها الأجيال ســرا فى أســرتى التى كان سلفها الأكبر أحد القادة الذين اضطلعوا بتلك المهمة ٠ لقد أقسم الجميع على السرية ولم يبوحوا بهذا الســر لغير الرجال ، بيد أن الرجال يصــابون بالحمى ، والحمى تجلب الهذيان ، وفى الهـذيان تفشى أخطر الأسرار » ٠

وعندئذ اعتقد البروفســور أن الأمر يقتضى محاضرة عن الحق ، فانطلق يقول : « دعينا ، يا فتاتى العزيزة ، نســلم بأنه حسب المستوى الدنيوى للحقيقة المنطقية كانت الأمور كما تقولين ، ألا تدركين أن هنــاك معنى أسمى ، به تعلن عقيدة بلادنا القويمة حقا أعمق من أية أسطورة عن الهليكوبتر والجماعة السرية العسكرية ؟ فما علاقة طائرات الهليكوبتر بالألوهية ؟ انها مجرد اختراعات حاذقة ، ولا ريب ، مريحة ولا غرو ، لكنها ليست جديرة بأن تتبوأ مكانة رئيسية فى المبادىء الجوهرية التى تقوم عليها نظرية تكوين العالم ٠ ولو حدث حقا أن رأى مؤسس عقيدتنا الأقدس أن يستخدم بعض هذه الأجهزة فان ذلك ، ولا ريب فيه ، كان لهدف ســام ليس لنا أن نشــك فيه البته ٠ واذا كنت تنكرين أنه نزل من السماء ، فهل أنت واثقة من أنك تعرفين أين توجد السماء ؟ ألم تتعلمى الحقيقة الروحية العظيمة القائلة بأن الســماء توجد حيثما تكون الأفكار

السماوية ؟ وليكن فى يقينك أنه حيثمـا حـل زهاتوبولك تكون الأفكار السماوية . أما عن موته فبوسعنا أن نورد حججا مماثلة . فماذا يحدث لو أن الهيكل الأرضى صار جامدا بلا حياة ؟ وأى غضاضة فى أن يعيده أحباره الى النار الأرضية التى هى أقرب الأشياء فى هذه الدنيا الى النار الالهية التى مكنته من تعليم تلاميذه ؟ ونحن لا نتعبد للهيكل الأرضى ، فالهنا يعبد بالروح والحق ، والروح والحق يسكنان النفس لا الجسد . فالكلمات الهوجاء التى تتفوهين بها عن أسمى اله قد تختلف ، بالمعنى الضيق الســاذج ، عن الحقيقة المـادية ، لكنهـا من الـناحية الروحية كما أوضحت لك وبالمعنى الوحيد الذى يعنينا ككائنات شريكة ، وان يكن ذلك بغير كمال ، فى الجوهر الالهى ، فهى باطلة تماما ولابد من دحضها بازدراء بكل ما تلهمنا اياه عقيدتنا المقدسة من قوة » .

وهنا أجابت الفتاة : « ان لقولك ، يا بروفســور ، وقعه البالغ على النفس ، لكنى توصـلت الى رأى قد يبدو لك رهيباً . انى أعتقد أن ثمة حقائق وأوهاما ، كما أن هناك صدقا وهناك أكاذيب . وأعلم أن الذين ينادون بنظرية الاعتدال – التى أظنك أحد أتباعها – يرون أنه ينبغى على المرء أن يراعى الاعتدال بين الحق والزيف كما راعيته ببراءة فى حديثك الذى استمعت اليه لتوى ، بيد أن الحقائق ، فى رأيى ، مرة ولا سبيل الى انكارها . أدرك أنه بفجور وحشى تمتع الانكا المصـاب بالسادية(١) بصديقتى فريا ثم التهمها .. هذه حقيقة . ومهما حاولت أن تلبس الحقيقة رداء الضباب والابهام فستبقى حقيقة ، وطالما حاولت اخفاءها عن بصرك فانك تشترك فى خستها كما أنها سوف تفسدك » .

قال البروفســور : « هيا ! هيا ! هذا أسـلوب عنيف ، كما أنى لا أعتقد أنك درست النظرية الفلسفية للحقيقة بالعمق الذى يقتضيه واجبك الأكاديمى . ألا تدرين أن حقيقة العقيدة تكمن فى نفعها الاجتماعى وعمقها الروحى ، وليس فى الدقة البشـعة الدنيئة كتلك التى يمـكن أن تقاس بمسطرة وضعت فى يدى أخرق ؟ وكم تبدو أحاسيسك نحو صـديقتك « فريا » تافهة حقيرة لو قيست بمقياس صـادق ، فكم كان هيامها فى لحظات تأليهها عميقا وأشـد اتفاقا مع حاجات الجنس البشـرى . تأملى فيما نالته فى غضـون دقائق معدودة – وهـذا ما ترفضـين فى غطرستك بعض مظاهره – اتحدت بالالهة القمر ، وانطلقت روحها الخالدة فى سـلام دائم وجمال خالد تهيم فى أجواء الفضـاء العليـا وقد تحررت

---

(١) حب تعذيب الغير .

من أحزان الحياة الفانية وخطوبها ، فكرى فيما تدين به البشرية لتلك الفريضة المقدسة التى أنهت حياتها الأرضية ، وتأملى الشعر والموسيقى الخفيفة الأخاذة وأحجار الفسيفساء العجيبة والمعبد بتقاسيمه وروعته •• هذه كلها تجذب العين والنفس على حد سواء الى السماء •• أفتريدين زوال كل هذا من الدنيا ؟ أتبغين أن تنحط البشرية الى جماعة من الحفاة القذرين المعدمين ؟ وهل تقبلين فناء الشعر والموسيقى وفن العمارة ؟ ومع ذلك كيف يمكن لفن من تلك الفنون أن يظل قائما بدون الأسطورة الالهية (اننى أستخدم العبارات بمعناها السامى) التى أوحت بها ؟ »

واذا كان الفن والجمال لا يعنيان لديك شيئا فماذا عن البنيان الاجتماعى ؟ وماذا عن القانون والأخلاق والحكومة ؟ أتظنين أنه يمكن أن تقوم لهذه قائمة ؟ وهل تحسبين أن الناس يعزفون عن القتل والسرقة بل وارتكاب الفحشاء مع غير البيرويات اذا هم لم يشعروا بأن عين زهاتوبولك تراقبهم ؟ ألا ترين أن تعاليم عقيدتنا المقدسة حق مادام الحق ما هو نافع اجتماعيا ؟ اننى أضرع اليك أن تقلعى عن كبريائك وعنادك وأن تخضعى نفسك لحكمة الأجيال ، وبذلك تضعين حدا لما تجلبينه على والديك ومعلميك وأصدقائك من خزى وألم » •

فصاحت ديوتيما : « كلا ! كلا ! وألف كلا ! فهذا الحق السامى الذى تتحدث عنه ما هو الا خداع سام ، وذلك النفع الاجتماعى الذى تغالى فى وصفه كثيرا هو مجرد الرغبة فى الحفاظ على امتياز جائر • وتلك الأخلاق الرائعة التى تتشدق بها ليست سوى تبرير لقمع السواد الأعظم من الجنس البشرى واذلاله • لقد انفتحت عيناى ولا يمكن لكلماتك الملتوية أن تحملنى على اغلاقهما ثانية » •

وصاح البروفسور ، بعد أن أشتد غضبه فى النهاية ، وقال : اذن فلتهلكى فى غطرستك وعنادك أيتها المارقة التعسة اننى أتركك لقضائك الذى تستحقينه بحق » • وما لبث أن تحول عنها ومضى •

ولم يبق بعد ذلك سوى احتمال واحد لحمل ديوتيما على التوبة والندم • ولما كان معروفا أن توماس يحبها ، فقد راودهم الأمل فى أن تبادله الغرام ، وفى أن الحب قد ينجح فيما فشل فيه النفوذ والسلطان ، وتقرر أن يلتقى بها توماس ، فان باء مسعاه بالفشل فلن تفلح أية محاولة فى ردها عن غيها •••

وكان توماس يمر بفترة عصيبة من الصراع والخوف والبؤس ، فككل رجل يحب كان يعانى من ضياع أمانيه ، وكشاب طموح بدأ طريقه

الى النجاح ممهدا · كان يخشى أن تحوم حوله الشبهات لصداقته الوثيقة بمارقة ، وكباحث فى اللاهوت و التاريخ لم ير مبررا للشك فى حكمة أبيه ، هاله ماقد يتمخض عن انتشار معتقدات ديوتيما من نتائج خطيرة · فمنذ الحادها رأى أن الكثيرين من أصدقائه السابقين أخذوا يتحاشونه ، وأدرك أنه قد بدأ يفقد مركزه القيادى وسط فريقه ، وما أن عاد أبوه غاضبا من زيارته لديوتيما حتى جعل يخاطبه بحدة بالغة :

وقال له : توماس ، ان روحا شريرة تحرك ديوتيما لم أعرها اهتماما كافيا فى دراساتى اللاهوتية ، ومنها تنبعث آراء خطيرة أشبه ما تكون بلهب مكفهرة مندلعة من نار كبريتية · ولست أدرى مدى تأثير هذا السم على عقلك · أرجو ، اكراما لخاطرى ، ألا يكون التأثير كبيرا ، واذا أردت أن تسترد احترام الجميع الذى كان يثلج قلبى الأبوى ، فما عليك الا أن تكون واضحا جليا ، وأن تعلن على الملأ أنك تناهض بشدة هرطقتها الشريرة ، وأنه مامن رواسب حب يمكن أن توهن رغبتك المتأججة فى أن تراها تاخذ العقاب العادل لفجورها ، ومع ذلك ما انفك ثمة بصيص أمل ، ولعلك تنجح فيما فشل والداها وأنا ، فلو أفلحت سارت الأمور على ما يرام ، وان باء مسعاك بالفشل بات لزاما عليك أن تبرهن بحماسك على أنك لم تتلوث بأفكارها » ·

وألقى توماس نفسه فى زنزانة ديوتيما ولا يزال صدى كلمات التحذير هذه يطن فى أذنيه ، ووقف برهة مشدوها أمام جمالها ورباطة جأشها · وفى بادىء الأمر بدد حبه لها وشوقه العارم الى انقاذها ما يتسم به من حكمة ورسوخ عقيدة ، فانفجر باكيا وأخذت دموعه تنهمر من عينيه وهو يصيح : « أواه ، يا ديوتيما ، ليتنى أستطيع انقاذك ! » ·

فأجابت : « عزيزى توماس ، كيف تتمسك بمثل هذا الأمل الأخرق ؟ مهما فعلت فان حياتى ضائعة لا محالة ، سواء قضيت نحبى كعروس لزهاتوبولك بشرف ظاهر وخزى خفى أم لقيت حتفى كمجرمة منبوذة ومحتقره من الجميع خلا ضميرى » ·

فاستطرد يقول : « ضميرك ! كيف تنصبينه حكما أوحد ضد كل هذه الحكمة والأجيال العديدة المتعاقبة ؟ وكيف تكونين على هذا القدر من اليقين ياديوتيما ؟ ومن أدراك أننا جميعا مخطئون ؟ ألا تكنين أى احترام لأبى ؟ وهل تقبلين تلويث شرف أجدادك ؟ لقد أحببتك ···

وودت لو أنك بادلتنى الحب ، لكنى أرى أن هذا الأمل قد خـاب ، وكم يؤلمنى القول أنى لا أستطيع الاستمرار فى حبك وأنت تمزقين أعمق مشاعرى ، فذلك أكثر مما أحتمل ياديوتيما ! » ٠

فقالت : « كم أنا آسفة اذ جعلتك فى هذا المأزق الخطير ٠ كان لديك قبل اليوم ، من الأسباب ما يحملك على أن تأمل فى حياة ناعمة كريمة ، لكن من الآن فصـاعدا عليك أن تختار ٠ فان أدنتنى فقد تظل حياتك سـهلة ميسورة ، وان لم تفعل فربما كان ذلك أشـرف وأنبل لكنى أعلم ـ حتى وان أخفيت هذه الحقيقة عن نفسك ـ أنك لن تشـعر فى أعماقك بسعادة لو أنك أدنتنى وأنحيت على بلائمة ٠ لعلك استطعت أثناء سـاعات انشـغالك أن تخرس شـكوكك وأنت تصـغى الى ثناء الناس ٠ لكن حين يرخى الليل سـدوله ستشهد رؤيا أشـير اليك فيها نحو عالم أسعد ، وما أن تولينى ظهرك حتى تستيقظ حزينا مهموما لأنى أعلم أنك قد رأيت ، وان يكن فى سـرعة خاطفة ، تلك الرؤيا التى من أجلها أدان راضية ٠ فليست الشمس والقمر ، كما نزعم ، هما اللذان يوحيان بعقيدتنا الرسمية ، بل الزهو والخوف : زهو بامبراطوريتنا وخوف من ضياعها ٠ فلا ينبغى أن تبنى الحيـاة البشـرية على تلك العواطف بل على الحق والمحبة ، حياة يجب أن نحياها بلا خوف وفى سعادة ينعم بها الجميع ، ولا يمكن أن تستمد الرضى من اذلال الغـير بل تخجل أن يـكون هدفها حماية تافهة للجسـد على حساب الينابيع الداخلية للفرح والحيوية التى تفيض فى أولئك الذين يكشفون للعـالم عما يعتمل فى نفوسهم فى مخاطرة جريئة باسلة ٠ لقد كبلنا أنفســنا بالأغلال ٠ ففى خـارج بلادنا فرضنا القيود على الضحايا ، ولم ندرك أن من يسجن غيره يصبح سجينا ٠٠ سجين الخوف والبغض ٠ فالأغلال التى قيدنا بها الآخرين قد قيدتنا فى سجن فكرى مطبق ٠ تذكر الشمس التى وجدت طريقها الى وادينا ، ولابد أن يشـرق النور فى بقاع العالم المظلمة ٠ وسوف تكون رسالتك فى الحياة بعد قضـاء نحبى هى مواصلة تلك المهمة ، وان كنت لا تدرى عن ذلك شيئا يذكر » ٠

أحدثت كلماتها صدى فى قلبه لبرهة وجيزة ما لبث بعدها أن استجمع قواه وانقلب اذعانه المؤقت الى ثورة غضب عارمة وصـاح : « كيف تجرئين على مثل هذا التفكير ، وكيف تخالين أنك تستطيعين بعباراتك الطنانة حملى على نبذ ما أقدس ٠ لا جدوى من المضـى فى الحديث

معك ، وحري بك أن تلقي حتفك ، أما أنا فينبغي أن أعيش كي أقاوم الشر الذي تحسبينه خيرا » · وبهذه الكلمات اندفع خارجا من زنزانتها ·

ولما فشل توماس في مهمته ، فقد المسئولون الأمل في حمل ديوتيما على التوبة والندم ، فانتخبت عروس جديدة ، وحكم على ديوتيما بالموت العلني في اللحظة التي تنعم فيها العروس بوحدة روحية مع الاله ·

وأعلن يوم اعدامها عطلة رسمية ، وأقيمت الأوتاد في ميدان المدينة الرئيسي وفي الصفوف الأمامية أعدت مقاعد النبلاء وعلية القوم ، ووقف خلفهم سكان المدينة بأسرها يتحرقون شوقا ولهفة وقد راحوا يمرحون ويمزحون ويتهكمن وهم يأكلون الجوز والبرتقال ، ويطلقون نكات سمجة ، ويهللون ترقبا للتعذيب الذي كانوا على وشك أن يشاهدوه · أما الأشراف الذين اتخذوا أماكنهم في الصفوف الأمامية فكانوا أكثر اتزانا ، كما لاذ الانكا فوق عرشه بالصمت في جلال ووقار · أما توماس ، كابن لأبيه ، فقد نال شرف الجلوس بين الأشراف · لقد حامت حوله الشبهات ظنا بأنه يشارك ديوتيما هرطقتها ، الا انه برأ نفسه من هذا الاتهام بحماس وقوة · وكمكافأة له وكاختبار في الوقت نفسه ، تحتم عليه أن يجلس حيث يشهد مصرعها بوضوح تام ·

وجاءوا بها عارية البدن ، لكنها ظلت رابطة الجأش هادئة النفس . وانطلق الجمهور يردد : « ها هي المرأة الشريرة ! سترين الآن من هو الاله ! » · ثم أوثقوها بالأوتاد وأشعلوا النيران بشعلات ملتهبة . وما أن بلغتها ألسنة اللهب حتى رمت توماس بنظرة ··· نظرة غريبة خارقة تعبر عن ألم ورثاء وضراعة في آن واحد ، رثاء لضعفه وضراعة كي يحمل رسالتها من بعدها ·· لقد مزق ألمها أحشاءه ، وسحق رثاؤها رجولته ، وأشعلت ضراعتها في عقله لهيبا لا يقل ضراوة عن ذلك الذي يحرق عودها · وفي لحظة رهيبة أدرك أنه كان مخطئا وأن ما تتعرض له رجس ودنس ، كما أدرك أنها قد نذرت نفسها لما قد يكون رائعا في حياة البشر وأن الاشراف ومن خلفهم من جماهير الشعب كانوا كذلك ضحايا الخوف الدفين · وفي اللحظة الرهيبة أحس بالندم والتوبة ···· لكن التوبة لفظ لا يعبر عما اختبر ، فلقد اختبر ذلك الاحساس العميق القوي الذي حملها على أن تقف مرفوعة الرأس في قلب النار المندلعة ··· احساس بتكريس نفسه للعمل الذي لم يتسن لها تكملته ، وبرغبة في

تحرير البشرية من أغلال الخوف وما يتولد عنه من قســوة وعنف ٠ وتراءى له أنه صـرخ من أعماقه قائلا : « ديوتيما ، أنا لك ، لكنه فى تلك اللحظة سقط مغشيا عليه ، وكانت الصيحة ولا ريب ، قد ترددت فى أعماقه فحسب !

الفصـــل الســـادس

تومـــاس

ظل توماس طريح الفراش باحدى المستشفيات زمنا طويلا يعـانى مرضا عضالا أعجزه عن التفكير المترابط ، وطافت بخياله أحلام بغيضه أليمة اختلطت فيها نســاء معذبات ، ورجال متوحشـــون ، ونيران ، وموت ، وصـرخات النصر المدوية التى تنم عن قسـوة ووحشية ٠ وأخذ عقله يؤكد وجوده رويدا رويدا ، وما لبثت أن عادت اليه صحته ، ومع الصحة استرجع عزيمة راسخة لا تلين سـرعان ما خلقت منـــه شخصية جديدة ، فلم يعد الشاب الرقيق المتواكل ، القانع بأن يقتفى أثر أبيه فيقر عينا ـ مثله ـ بنجاح بخس حقير ٠٠٠ وبفـكر ثاقب منبثق من عاطفــة متأججة فطن الى كل ما انطوى عليه النظـام البيروى من مزاعم ، وأدرك الدوافع الدنيئة التى أملتها ودعمتها ٠ أما عقله الذى دأب على العمل باتقان تام فى نطاق الحدود التى فرضتها العقيدة فقــد تخطى تلك الحدود دون أن يفقد ذرة من دقته واتزانه ، فلم يتحرر عقله وحده بل قلبه أيضــا ٠٠٠ وكان البيرويون قد تعلموا أن يقدســوا الدولة باعتبارها رداء الله الأرضى ، وأن يقصــروا عطفهم على أولئك الذين يخدمون الدولة بكل ما أوتوا من قوة ، بيد أن الدولة هى التى أطاحت بديوتيما ٠ وفى غمرة ثورته على تلك الوحشية ، اذا هو يعلنها حـربا عوانا على جميع ألوان العنف والقسوة الأخرى ، وعلى ضروب النظم التى تكبل العطف الانسانى بالقيود لا فى بلاده فحسب بل أينما حل بنو الانســان ٠ وبفعل نار عواطفه المتأججة امتزج الحب والحقد والعقل معا فى وحدة صلبة لا تلين ٠٠٠ حب لديوتيما أولا ، ثم لغيرها من الضحايا،

وحقد على الذين قضـوا بموتها ، ومن ثم على النظـام بأكمله الذى تسبب فى هذا القتل ، وعقل يحدثه بأن ألوهية زهايوبولك ضـرب من الأساطير ، وأن الشمس والقمر ليسـا الهين بل كتلتين جامدتين لا حياة فيهما • كما أن تحريم تحديد النسل خرافة ، والتهام الناس لأبنائهم انما يقتل فى نفوسهم القدرة على العطف والحنان • وعقد العزم بكل عقله وفؤاده وارادته على الا يقيم على الأرض ، لو استطاع الى ذلك سبيلا ، نظاما أفضـل من ذاك الذى تعلم أن يحترمه ويقدسه ، نظاما أكثر اتساقا مع ما كانت ديوتيما تحلم به وتتمناه • وحسب أن الشعور بالذنب الذى ينخر فى أعماقه لا يمكن أن تخمد له جذوة ما لم يتسن له أن يقدم تلك التضحية تخليدا لذكرى ديوتيما المؤلمة المضنية •

ولكن لكى يهدأ ندمه وتبكيت ضميره ، لابد للقربان الذى يقدمه لذكراها أن يكون تغييرا للعالم كله وليس مجرد اخلاص شخصي أو اسـتشهاد لا طائل من ورائه • وبتصميم أكيد متوقد فى أعماقه ، وان بدا فى الظاهر باردا كالثلج ، راح أولا يرسم خطته ، ثم يخرج بها الى حيز التنفيذ ، ولم يفه بكلمة ضـد النظام القـائم فى الجهـر ولا مع من لا يثق بهم ثقـة مطلقة ، وكان يبدو فى نظر أبيه وكل انسان آخر تقريبا ، وقد تطهر من كل ما كان يشوبه ذات يوم من شكوك ، فسرعان ما تبددت تلك الظنون التى حامت حوله فى الأيام الأخيرة لديوتيما وصارت حياته الرسمية هادئة تنتقل من نجاح الى نجاح ، فتولى منصبا قياديا بين أقرانه ، كما كانت كلماته تشنف الآذان لما تنطوى عليه من حكمة ورصانة •

وكان أشـد أصدقائه تحمسا له واعجابا بآرائه شابا يدعى « بول » وفى ساعة متأخرة من احدى ليالى الصيف ، فتح قلبه لبول بحذر فى بادىء الأمر ، وما أن وجد منه استجابة حتى راح يفرغ ما بجعبته شيئا فشيئا كانت الشكوك تساور بول حول حرق ديوتيما ، وكان من الحكمة بحيث كتم الأمر فى نفسه ، فجاءت كلمات توماس لتؤكد شكوكه ، وطفق الاثنان يتحادثان طوال ليلة الصيف حتى بزغ الفجر ، ثم افترقا بعد أن تعاهدا على اذكاء نار أية ثورة يندلع لهيبها ، واستطاعا تكوين جمعية سـرية تضم من عقدوا العزم على الثورة من بين طلبة العلوم الذين تعذر عليهم التسليم بألوهية الشمس والقمر ، ودارسى التاريخ ممن لم يؤمنوا بانحطاط الأجناس الأخرى ، وطلاب علم النفس الذين ثاروا ضد عادة أكل الأبناء التى تقتل الحب الأبوى • وأخذت الروايات حول مسلك الانكا الذى لا يمت بصلة لأى تصرف الهى ، تتسرب من دوائر الحاشية رغم ما اتخذ من

احتياطات أمن مشددة · ومع ذلك ظل توماس بعيدا عن هذه التيارات · وفى الخفاء راح يشجع أكفأ تلاميذه على القيام بالبحوث التى حظرتها الحكومة وجعلت الموت عقابا لمن يضطلع بها · ولما كانت قوة بيرو تستند الى فطريات كوتوباكسى القاتلة ، فقد اكتشف طبيب نابه علاجا واقيا من الوباء ، كما أصبح الكثيرون من حلفاء توماس حكاما لأقاليم نائية ، تلك المناصب التى لم تكن مرغوبا فيها لبعدها عن بيرو وكانت فى العادة توكل الى الشبان كخطوة أولى فى هرم الترقى الرسمى · وانطلق هؤلاء الرجال بحذر وفى سرية ، يتخلون عن سياسة ازدراء الغير التى دأبت بيرو على انتهاجها فى بقاع العالم الأخرى · وصار بول ، الذى أصبح الرجل الثانى لتوماس ، حاكما لاقليم « كيلمنجارو » حيث كان متسلقوا الجبال فى تلك المنطقة على ما هم عليه من جرأة وعنف ، اذ طبعوا على الخشـــونة والجفاء · فقرب اليه زعماءهم وولد فى نفوسهم ، لأول مرة منذ أجيال عديدة ، الأمل فى النجاة من ربقة الاستعمار البغيض ، وظل الكثيرون من المتآمرين يتولون فى بيرو مناصب رئيسية دون أن تحوم حولهم الشبهات ·

وأخيرا ، وبعد عشرين عاما من التدبير المقرون بالحيطة والحذر ، قرر توماس أن الوقت قد حان للعمل السافر ، ورسمت خطة دقيقة لما سيقع من أحداث، فأعلن ، وكان آنذاك يشغل منصب مدير الجامعة ، أنه ســـيميط اللثام فى اليوم الذى حدده عن حقيقة مثيرة وطلب الى جميع أنصاره – باستثناء من اوكلت اليهم مهام خاصة – الحضور فى القاعة التى سوف يلقى فيها خطابه ، واعتلى المنصة كما فعل أبوه من قبل · بيد أن كلماته كانت مغايرة تماما هذه المرة ، اذ جاهر بكل ما يؤمن وما لايؤمن به ، ولدهشة من لم يكونوا مشتركين فى الخطة لقيت أشد آرائه الهدامة تصفيقا حادا ، وخيم الرعب والحيرة على المكان ، لكن السلطات أفلحت كما كان متوقعا ، فى أن تلقى القبض عليه وتحكم عليه بالموت كديوتيما ، حرقا فى اللهب التى تشعل فى عيد الظهور ·

وما حدث بعد ذلك لم يكن فى حسبان الحكومة ، فقد اكتشف واحد من أصدقائه كيف يصنع المطر ، وحال طوفان الماء دون اشتعال النيران التى كانت ستلتهمه · وحين علم صديقه بول بالســـاعة المحددة لتنفيذ الاعدام ، استقل طائرة ضخمة من مقر رئاسة الحكومة فى « كليمنجارو » وانطلقت تطير بسرعة الصوت حتى بلغت سحب المطر المخيمة فى ســـماء « كوزكو » · ثم هبطت منها طائرة هليكوبتر فى الميدان واختطفت توماس الذى نقل الى كليمنجارو تاركا جماهير الشعب تعتقد أنها قد رأت معجزة

واذ ذاك وجدت الحكومة نفسها مغلولة اليدين ازاء التمرد غير المتوقع الذى رفع لواءه الكثيرون من ضباطها · ولما نمى الى علم السلطات فى كوزكو وقوع ثورة فى كليمنجارو ظنوا أنهم قادرون على قمعها باستخدام وباء الطفيليات ، فاذا بهم يفاجأون بأن سكان أفريقيا محصنون ضد هذا الوباء · واستبد بهم الرعب الذى انقلب الى اضطراب وذعر حين تبينوا أن العلماء من أنصار توماس قد اكتشفوا السبيل الى توليد أشعة مميتة من المنحدرات البركانية للجبل المقدس الجديد · لقد ظلوا قرونا عديدة لم يتسرب الخوف الى نفوسهم ، ما أن واجهتهم الأزمة حتى خانتهم شجاعتهم وحين حلقت قوات توماس فى أسطول ضـخم من الطائرات فى سـمائهم وراحوا يهددونهم بنشر غبار الموت الذى جاءوا به معهم ، لم يكن من الطبقة الأرستقراطية الحاكمة الا أن استسلمت على أساس الوعد بالابقاء على حياتهم ، وأصبحت كليمنجارو مركزا للحكومة ، ونصـب توماس رئيسا لجمهورية العالم كما اختير بول رئيسا لوزرائه · واعترف الجميع بأن عهدا جديدا قد بدأ ، أما عصر زهاتوبولك فقد زال وولى !

وما أن استقر حكمه حتى بدأ توماس يعمل فى رفع الذل الذى لحق بالشعوب غير الهندية جميعها ، فخفض ساعات العمل التى كان البيرويون قد حددوها بعشر ساعات لا بدافع اقتصادى بل بهدف ارهاق العمال حتى لا يقووا على التحرر أو الثورة · وبفضل جهود فريق المخلصين ، ازدادت موارد العالم الغذائية ، وبإباحة منع الحمل باتت هذه الزيادة تخدم الصحة وتحقق الرفاهية بدل أن تؤدى الى مضاعفة عدد السكان · واشترك فى السلطة السياسية من كان على قدر كاف من التعليم الذى أخذ ينتشر بأقصى سرعة ممكنة فى ربوع الأرض قاطبة · وشهدت كثير من الدول التى كانت ترزح تحت نير العبودية نهضـات عظيمة فى الفن والشـعر والموسيقى وانطلقت الطاقات المقيدة ، التى ظلت قرونا فى ركود وخمول تشكل حياة خصبة مثمرة لم تشهد مثلها سوى عصور عظيمة محدودة لقرون محدودة · ونادى بعدم الاعتراف بالآلهة وبذل قصارى جهده كى يقنع العالم بأن المعجزات مستحيلة الوقوع ، وان رأى الناس فى نجاته من الموت معجـزة محققة ، وكان هنالك من أرادوه فى مكانة زهاتوبولك السابقة ، لكنه رفض التأليه بشدة ودعا الى مقاومة هذا المبدأ فى جميع المدارس ، فلم يكن فى عهده كهنة ، أو طبقة أرستقراطية ·· لا أجناس حاكمة ولا شعوب مغلوبة على أمرها ·

الفصـــل الســابع

المســتقبل

تلك هى قصة الثورة العظيمة كما رواها بول ، صديق توماس ، بعد حكم دام سنين طويلة وانتهى بموته ، ومنذ ذلك اليوم صارت قصة حياته وتعاليمه كتابا مقدسا للعصر الكليمنجارو ولكن ما لبث الناس أن اكتشفوا شيئا فشيئا أن بعض جوانب نظرية توماس قابلة للتحريف وسوء التفسير ولو ترك كتاب « بول » يقرأه الجميع لأدى الى نتائج وخيمة لا تحمد عقباها ، اذ هـو لم يشـر الى الأمور التى تفهم حرفيا وتلك التى تعتبر مجازية ٠ وساد الاعتقاد فى ربوع الأرض قاطبة أن توماس كان فى الحقيقة الها ، كما كانت ديوتيما الهة ، وأن كليهما ارتدى رداء البشر لفترة وجيزة٠ فما أن وافتهما المنية حتى استأنفا حياتهما السماوية التى تخليا عنهـا لبضع سنوات معدودات من أجل خلاصنا ، وحين أنكر توماس ألوهيته فانما كان ذلك بالنسـبة لظهوره الأرضى ٠٠ ذلك ما نادى به المفســر العظيم « جريجوريوس » بعد موت توماس بخمسمائة عام ٠

وظل كتاب بول متداولا فترة من الزمان مشفوعا بتفسير جريجوريوس ومع ذلك ظل ينطوى على ضرب من المخاطرة ٠ فحظرت قراءته حتى مع التفسير الا لمن يصرح لهم بذلك من اللاهوتيين ، ولم يضعف هذا الحظر من خطورته ، وفى نيوزيلاند لا توجد غير نسخة واحدة بجامعة أوكلاند كانت قد أعيدت أخيرا الى الجامعة وقد دونت فوق صــفحتها الأخيرة الملاحظة التالية الغريبة : « أنا ، طوبيا من قبيلة نجابوهى » المقيم فوق منحدرات « روبيهو » ، لست مقتنعا بما ذهب اليه « جريجوريوس » من تفسير أخرق ٠ ويقينى أن توماس كان أحكم من جريجوريوس ، وأنه كان يعنى حرفيا كل مايراه ذلك الكاهن الذى تستبد بذهنه الأمور اللاهوتية محيرا مقلقا ٠ ولسوف تكون رسالتى ـ اذا ما أتيح لى ذلك ـ أن أعود بالعالم الى ذلك الالحاد القديم الذى سعى محرره الى نشره » ٠

تلك كلمات تنذر بالسوء لم يتضح بعد ما تمخضت عنه من نتائج ٠

الايمان والجبال

الفصــــل الأول

استبدت الدهشــة بمندوب نيبال لدى هيئة « اليونسكو » وتملكته الحيرة ، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يهجـر فيها أنهار بلاده الجليدية وصخورها المنحدرة الآمنة ، ويدفع بنفسه الى مخاطر الغرب التى تثير فى النفس القـلق والاضطراب ٠٠ كان المندوب قد وصـل بالطائرة فى ساعة متأخرة من عشية اليوم السابق فلم يلحظ شيئا من حوله ، وراح يغط فى سبات عميق حتى الضحى ، اذ كان متعبا منهوك القوى ٠ ثم أخذ يتطلع الى شارع كان النادل الذى أحضر له طعام الافطار قد أبلغه أنه شارع « بيكاديللى » ، فلم يبد له بالصورة التى رسمتها فى ذهنه أفلام السينما ، كما أنه لم يلمح فيه حركة عادية للمرور بل موكبا هائلا من رجال ونساء يسيرون على الأقدام ، وقد رفعوا لافتات لم يسعفه قاموس ، كان يحمله ، لادراك مغزاها ٠ غير أن العبارات التي تضمنتها كانت تتردد على نحو تمكن معه من فك رموزها ، فقد كانت الجماهير تهتف بعبارات متعددة ، لكنها تحمل معنى واحدا استطاع فى النهاية أن يحدسه ٠٠ لقد سمعها تصيح : « تحية للملبدنوم(١) صانع الأجســام الصحيحة » ٠٠ ثم ترامت اليه عبارة أخرى ترددت كثيرا تقول « الى المجد مع الملبدنيين » ٠٠ وثالثة لم تتكرر كسابقتها هى « عاشت القديسة موللى ٠ ب ٠ وين » ٠٠ وكان هناك فريق آخر قد تولاه الهياج والغضب ، يحمل لافتة تقول : « الموت لأنصار المغناطيس الأدنياء » ٠ كان الموكب مهولا ، اذ بلغ طوله فى بعض الأحايين ما يقرب من ربع الميل ٠ كما كان يضم فرقة موسيقية وجوقة من المرتلين أخذوا ينشدون ما بدا كأنه نشيد الجنود الزاحفين الى أرض المعركة :

الملبدنوم أحسن المعادن ،

نافع للعظيم والحقير ،

---

(١) عنصر معدنى هش يمزج بالفولاذ لحفظ صلابته ضد الحرارة الشديدة .

يشفى جميع أمراض الصدر ،

وينمى أيضا عضلاتنا ..

كانوا يرددون النشيد كما يرددون التراتيل الدينية ، وهذا ما لم يدركه المندوب النيبالى ، اذ لم ينعم بتربية مسيحية .

وما أن خيل اليه ألا نهاية لذلك الموكب حتى حدثت فجوة أعقبتها شرذمة من شرطة السوارى . ثم موكب آخر يحمل لافتات مغايرة تماما كتب على طائفة منها : « المجد لأورورا بوهرا » بينما حملت أخرى عبارة : « القوة للقطب الشمالى » .. الى جانب لافتات أخرى كانت تقول : « عن طريق المغناطيسية ننال العظمة والجلال » . ومالبث الزاحفون أن انطلقوا فى هذا الموكب وجعلوا يرتلون بدورهم ترنيمة لم يفهم كنهها ، شأنها شأن ترنيمة الموكب الأول . كانوا ينشدون :

أتقــــــدم

نحـــو الشـــــمال

فى مركبتى ذات المحركات الثلاثة .

أهبط فوق القطب

لخــــير نفســـــى

وأتعلم أن « بوهرا » تفضـل « هاريت » كثيرا .

كان كلما مر الوقت ازداد فضول مندوب نيبال حتى بلغ الذروة ، فاذا هو يندفع الى الشارع فينضم الى الموكب الزاحف ، وبأدب الشـرق العتيد يسائل من كان يسير بجواره : « ألا تكرمت ياسيدى ، وتفضلت بأن تشرح لى السبب الذى يحمل هذا الجمهور المرتل على الزحف ناحية الغرب بمثل هذا العزم والنظام ؟ » .

فأجابه الرجل « باركك الله ، أتعنى أنك لا تدرى شيئا عن طائفة « الماجنتس » ، ترى من أين أنت قادم ؟ »

فاستطرد المندوب « لا تضق ذرعا بجهلى ياسيدى ، فأنا لم أهبط من الطائرة الا بالأمس القريب فقط ، وكنت من قبل ، أقطن جبال الهيمالايا فى

منطقة لا يسكنها غير البوذيين والشيوعيين ، جماعة طبعت على السكينة والهدوء ولا تشغل بالها بمثل هذه المسيرات الطويلة الغريبة » ٠

فقال جاره : « ياالهى ، ان كان هذا شأنك ، فتبسيط الأمر لك كى تفهمه يتطلب من الجهد مالا غنى لى عنه » ٠

ثم مضى المندوب فى صمت يحدوه الأمل فى أن يكشف له الزمن حقيقة الأمر ٠

وفى نهاية المطاف ، وصل الموكب الى مبنى هائل مستدير اسمه « قاعة البرت » ، على حد قول جاره ، حيث سمح للبعض بالدخول بينما أجبر السواد الأعظم من الجماهير على البقاء خارجا ٠ أما مندوب نيبال فلم يؤذن له بالدخول فى بادىء الأمر ، لكن بعد أن أفصح عن مركزه الرسمى كمندوب وأوضح اهتمام بلاده البالغ بمظاهر الغرب الثقافية أذنوا له ، فى النهاية ، بأن يتخذ مقعده فى المؤخرة فى منتصف القاعة تماما ٠

ولاح له أن ما شاهد وسمع انما يلقى ضوءا عظيما على أخلاق شعب عجيب وجد نفسه بين ظهرانيه ، وعلى عاداته وتقاليده وعقائده وأساليب تفكيره ٠ بيد أن ما ظل خافيا عليه كان كثيرا ، فقرر أن يكرس نفسه لبحث جدى ويرفع تقريرا مفصلا ينير به عقول حكماء الهيملايا ٠

وبرهنت المهمة على أنها شاقة فعلا ، ولم ير أن ما توصل اليه جدير بحكمة من أوفدوه الا بعد مضى اثنى عشر شهرا ٠ وكان من حسن حظى ابان تلك الشهور الاثنى عشر أن توطدت بينى وبينه أواصر الصداقة وأن أتيح لى الانتفاع بحكمته ٠٠ وفى ضوء تقريره ، كتبت هذه القصة التى تتناول المناقشة العظيمة والأحداث التى أفضت اليها وأعقبتها ٠٠ ولولا جهوده ما كان لقصتى أن تبلغ مابلغته من دقة وافاضة ٠

الفصـــــــل الثـــانى

كانت كل من الطائفتين اللتين شهد مندوب نيبال مناقشتهما العلنية، قد ظهرت بعد فترة اكتنفها الغموض · وفى الســـنوات الأخيرة راحتـا تنتشران بسرعة مذهلة قل أن تجد معها شخصا ، باستثناء العلماء ، لم ينضـــو تحت لواء احداهمـــا · وكان يطلق عليهمـــا : « الملبدنيين » و « المغنطسيين الشماليين » أو « المغنطيسيين » فحسب كما اتخذت كل منهما لندن مقرا لرئاســـتها ، وكان « زيرويا تومكنز » يدير دفة أمور الملبدنيين بينما تولى « متاسا ميرو » ادارة شئون « المغنطسيين » · أما العقيدة الأساسية التى كانت تعتنقها الطائفتان ، فكانت بسيطة لا تعقيد فيها ··

كان الملبدنيون يعتقدون انه لتنمية الصحة والقوة تنمية كاملة يحتاج جسم الانسان فى الغذاء الى قدر من الملبدنوم أكبر مما هو مألوف من قبل، وكانت آيتهم المختارة هى : « من يأكل ، يأكل للرب ، ومن لا يأكل ، فللرب لا يأكل » · لكنهم غيروا ترتيب كلمات الشطر الأخير من الآية فصارت تقرأ : « من لا يأكل ، لا يأكل للرب » ·· وراحوا يفسرون عبارة « من يأكل » بأنها تعنى شخصا يأكل الملبدنوم ، مدعمين رأيهم بقصة لا أستطيع أن أقطع بصـــحتها ، وهى أن قطعانا كبيرة من الغنم فى منطقة معينـة باستراليا أخذت تضعف وتموت موتا بطيئا لخلو مراعيها القليلة خلوا تاما من عنصر الملبدنوم بعكس ما يوجد فى أوروبا وآسيا · وأعلن بعض علماء الكيمياء العضوية والأطباء ـ لعلهم ليسوا من أبرز المشتغلين بالمهنتين ـ ما لعنصر الملبدنوم من أهمية غذائية ، فاستغل أنصار هذه الطائفة المخلصون هذه التصريحات واتخذوا منها دليلا يبرهن على صحة عقيدتهم · لقد كان الاقبال على هذا العنصر المعدنى ، غير الشائع ، شديدا لصناعة الأسلحة ، فلما أخذت حدة التوتر تخف رويدا رويدا تناقص هذا الاقبال · لكن مع انتشار طائفة الملبدنيين وتطورها ، لم يعد طلب الملبدنوم

يعتمد على اندلاع نيران الحرب . اذ كان الملبدنيون يناهضون الحرب ويعتبرون الناس جميعا اخوة ماخلا أنصار طائفة .. المغنطيسيين .. لكن التغلب على هذه الطائفة ما كان ليتحقق بالقوة بل بنور الحق الساطع الوضاح .

أما طائفة « المغنطيسيين الشماليين » فقد اكتشفت سر سعادة الانسان ورفاهيته فى اتجاه مغاير تماما فهى تقول « نحن جميعا أبناء الأرض ، والأرض ، كما يعلم كل تلميذ مبتدىء ، مغنطيس عظيم . ومن واجبنا جميعا أن نشارك بدرجات متفاوتة فى الميول المغنطيسية لأمنا العظيمة . واذا لم نخضع أنفسنا لسلطانها الخير شملنا القلق والاضطراب ومن ثم يتحتم علينا دائما أن ننام ورؤوسنا متجهة صوب القطب الشمالى وأقدامنا نحو القطب الجنوبى ، ومن يداوم النوم هكذا ينل رويدا رويدا نصيبا مما للأرض من قوى مغنطيسية ، وينعم بالصحة والعافية والحكمة .. ذلك ، على الأقل ، ما كان يؤمن به أنصار طائفة « المغنطيسيين » ايمانا راسخا لا يتزعزع .

وكان بكل طائفة دائرتان ، واحدة داخلية وأخرى خارجية ، يطلق على الأولى دائرة « القادة » كما تسمى الثانية دائرة « الأتباع » . وكانت لأعضاء الدائرتين شارة تميز أعضاءها عن غيرهم . فقد كان أتباع « الملبدنوم » يضعون خاتما من الملبدنوم فى أصبعهم ، بينما دأب المغنطيسيون على أن يعلقوا فى أعناقهم مغناطيسا فى شكل قلادة . وكان القادة يكرسون أنفسهم للحياة المقدسة التى كانت موزعة بين التأملات والعمل التبشيرى . ومن ثم كان « القادة » لدى كل من الطائفتين أصحاء وسعداء وأطهارا . لقد كان الخمر والتبغ محرمين عليهم . كذلك كانوا يأوون الى الفراش فى ساعة مبكرة ليتسنى للدم ، بالنسبة لطائفة الملبدنوم أن يمتص ما تناولوا من الملبدنوم مانح الصحة والعافية ، ولتتمكن قوى الأرض المغناطيسية ، بالنسبة للمغنطيسيين من أن تعمل عملها كاملا ابان ساعات الظلام . ولم يكن القادة ، بقوة الايمان ، يعبأون كثيرا بالمضايقات اليومية التى كانت تقلق من لم يؤتوا هذا القدر من الايمان . حقا كانت لهم مشكلاتهم فى أيام خلت ، حين كان المتطرفون من غير الحكماء يدفعون بتعاليم الطائفتين الحكيمة السامية الى ما وراء حدود الحكمة ، فقد وجد يوما بين صفوف الملبدنيين جماعة متطرفة حسبت أن القداسة يمكن قياسها بقدر ما يستهلك من الملبدنوم يوميا ، فانغمس بعضهم فى استهلاك هذا العنصر حتى بات جلدهم أشبه بلون المعدن ذاته ، وبات واضحا أن من

الممكن الانغماس فى الملبدنوم كما فى أى شىء آخر لدرجة الافراط مهما سمت نواياهم . واضطر الشيوخ منهم ، عقب اجتماع عاصف ، الى معاقبة المتطرفين وتدريبهم على النظام ، فلم تظهر بعد هذه الواقعة المؤلمة مشكلة مماثلة .

وبرز بين المغنطيسيين نزوع الى تطرف من لون مغاير ، اذ وجد من قالوا : مادمنا ننال الفضيلة ونحن نيام فى اتجاه قوة الأرض المغنطيسية ، فقد بات لزاما علينا أن نضطجع على هذا النحو بصفة مستديمة . فالنهوض من فراشنا مخاطرة بفقدان الفضيلة الملهبة التى تهبها الأرض لمن يعبدونها كما ينبغى . ومن ثم كان هؤلاء المتحمسون يقضون الأربع والعشـــرين ساعة فى الفراش ، مما بعث الضيق البالغ فى نفوس أقربائهم وأصدقائهم ممن كانوا دونهم حماسا وتعصبا . وأمكن القضـــاء على هذه الهرطقة بما كان الشيوخ من سلطان ، كما قضى على تلك التى ظهرت بين صفوف الملبدنيين وان يكن بمشقة ، وصـــدر قرار يحظر على أى عضـــو من المغنطيسيين البقاء فى فراشه أكثر من اثنتى عشـــرة ســـاعة من الأربع والعشرين ، باستثناء أوقات المرض .

بيد أن هاتين المشـــكلتين لم تظهرا الا فى الأيام الأولى من تاريخ الطائفتين ، أما فى أيامهما الأخيرة فقد اتحد الجهاد فى الدعوة والنجاح السريع مع الصحة والقوة ليملأوا حياتهم غبطة وبهجة . ولم يكن ثمة ما يقلق القادة سوى أمر واحد هو أن الملبدنيين لم يستطيعوا فهم السر الذى حدا بالعناية الالهية الى أن تسمح بنمو المغنطيسيين ، كما أن هؤلاء لم يتسن لهم فهم السبب الذى حمل العناية الالهية على الســـماح بنمو الملبدنيين وتقدمهم . وراحت كل طائفة تعزو نفســها بالقول أن هنـــاك . ولاشك ، سرا غامضا يكمن فى مكان ما ، وليس لعقل الانسان المحدود أن يدرك مقاصد العناية الالهية السامية ، ولامراء فى أنه عند اكتمال الزمان سوف يسود الحق وســتحظى الطائفة التى ظلت تعلن الحقيقة بالتأييد العالمى . وعلى « القادة » ، فى هذه الأثناء ، أن ينشروا النور بالقدوة الحسنة والارشاد والكلمات الحكيمة فى وقت مناسب وغير مناسب . ولقد كان النجاح الذى حققته كل من الطائفتين فى هذا الصدد موضع دهشـــة واستغراب لغير المكترث .

ولقد تعرضت كل طائفة ، فى فجر تاريخها ، لسخرية غير المؤمنين بها ، الذين راحوا يتساءلون : ولماذا معدن الملبدنوم بالذات ؟ ولم لا يكون

السترونتيوم ؟ ولم لا يكون الباريوم ؟ ثم ما سر عظمة هذا العنصر دون سواه ؟ وحين أجاب المؤمنون بأن السر لا يدركه الا أولئك الذين نالوا الايمان قوبل الرد بتهكم وسخرية ٠

وسرعان ما واجه المغنطيسيون الشماليون عين المعضلة ، فكان المرتابون يتساءلون : ولماذا لا يكون القطب الجنوبى ؟ وذهب البعض – ولا سيما من كان منهم يقطن نصف الكرة الجنوبى – الى حد أنهم دأبوا على النوم ورؤوسهم فى اتجاه الجنوب ، وراحوا يعلنون تحديهم لأنصار طائفة المغنطيسيين الشماليين للدخول معهم فى مباريات للمصارعة لاثبات أن القطب الجنوبى يمنح القوة والنشاط كالشمالى سواء بسواء ٠ وكان المغنطيسيون الشماليون يقابلون مثل هذه التحديات بالازدراء الذى تستحقه ، فيجيبون بالقول : ان الذين يتبعون النظام المحدد لا ينالون الصحة والقوة فحسب ، اذ بتغلغل قوة الأرض المغنطيسية فى الأعماق بتحقيق نوع من الانسجام الداخلى ٠ فمن الناحية البدنية وحدها قد يتغلب بعض الكافرين على بعض المؤمنين ، لكن المؤمنين الحقيقيين سيظلون أكثر سموا وعظمة من حيث ما ينعمون به من انسجام تام بين الجسد والروح ٠ وأما القول بأن القطب الجنوبى خير كالقطب الشمالى تماما ، فقد دحضوه قائلين بأنه لو كان هذا صحيحا فهل من تبرير للسبب الذى حدا بالخالق الى أن يخلق فى الشمال مساحة من الأرض تفوق ما فى الجنوب بمراحل ؟ ومع أن هذا الرأى قد أثار شيئا من السخط فى جنوب أمريكا وجنوب أفريقيا واستراليا فقد ساد الشعور بأن الرد عليه أمر عسير ٠ ولم يكن هناك مايحول دون تأثير آراء طائفة المغنطيسيين الشماليين سوى حماس أنصار الملبدنوم وعصبيتهم ٠

كان كل جانب يحاور ، ويحاور فى صدق ونزاهة ، بأن الايمان بالحق هو وحده الكفيل بمواجهة الايمان بالباطل ٠ ولا يستطيع المنطق الذى لا يسانده الايمان أن يتغلب على حماس المتعصبين المخدوعين ٠ وعندما كانت الطائفتان فتيتن ، حاول بعض رجال العلوم وعدد من نقاد الأدب أن يقابلوا مزاعمهما بمزيج من الاحصائيات والتهكم ، غير أنهم عجزوا عن وقف التيار الشعبى الجارف ٠ وجاء الوقت الذى لم يقف فيه ضد كل من الطائفتين سوى أولئك الذين منعهم ذكاؤهم الفائق (أو كما هم أنفسهم يظنون) من التعاطف مع جماهير الشعب ٠ كما لم تقف على الحياد غير الصحف الباهظة الثمن ، المحدودة التوزيع التى لم يكن يقرأها غير ارستقراطى الفكر ، والتى كانت تكتفى بنشر أقل ما يمكن ذكره عن أخبار

الطائفتين ، مما جعل كبار المتعلمين يعيشون فى شبه عزله عما كان يجرى من حولهم · أما الصحف الرخيصة فقد حاولت فى بادىء الأمر مهادنة كل من الجماعتين ، لكن سرعان ما اتضح أن المضى فى هذه السياسة أمر متعذر ، فكان أى ثناء على طائفة المغنطيسيين الشماليين يثير سخط طائفة الملبدنوم ، كما أن عدم القدح فى الملبدنيين كان يحمل المغنطيسيين على القسم بألا يطالعوا ثانية تلك الصحيفة الساقطة · ومن ثم اضطرت الصحف الشعبية الى الانحياز الى أحد الطرفين · فانضمت صحيفة «ديلى ليتننج» الى جانب المغنطيسيين الشماليين ، بينما انحازت « ديلى ثندر » الى الملبدنيين · وراحت كل منهما ــ يوما بعد يوم ــ تصور بشكل أشد عنفا من ذى قبل ، الانحطاط الخلقى والفكرى للطرف الآخر ، وتبرز ذرى الطهر والحماس والتكريس التى يرقى اليها الطرف الذى تسانده · وتحت تأثير هذه البراعة الصحفية ، أخذت الروح الطائفية تقوى شيئا فشيئا فضاعت الوحدة القومية ، وبلغ الأمر حدا كان يخشى معه اندلاع نيران حرب أهلية ·

ولم تكن المشكلة قاصرة على بريطانيا وحدها ، بل كان التوتر المتزايد بين الولايات المتحدة وكندا ــ ذلك التوتر الذى نشأ عن أسباب لم نتعرض لها بعد ــ هو ، فى الواقع ، أخطر مظهر لها ·

الفصل الثالث

كانت مؤسسة طائفة الملبدنيين أرملة أمريكية فى ربيع العمر تدعى « موللى · ب · دين » وكان زوجها فاحش الثراء ، لكنه كان وديعا ، وداعة من النوع الذى يرث الأرض كما تذكر الأناجيل ·· لقد كان يملك مساحة شاسعة من أرض كلورادا آل اليه جانب منها بالميراث ، وحصل على الجانب الآخر بالاستثمار الناجح · وكانت زوجه ، التى آلت اليها الثروة الضخمة برمتها ، احدى النساء اللائى خلقن ليصبحن أرامل ·

ولا يبلغ أولئك الذين يتزوجون من مثل هذه النساء سنا متقدمة · ومن ثم مات السيد دين وهو فى ربيع الحياة ·

لكن يبدو أنها لم تدرك هذه الحقيقة كجانب حتمى من مصيرها ، اذ دأبت على الترديد عند تحدثها عن مزايا الملبدنوم : « آه لو عرفت آثار هذا المعدن النافعة فى وقت مبكر ، اذن لظل زوجى العزيز (يهوشافاط) على قيد الحياة » ·

اكتشفت مسز « موللى · ب · دين » – التى كانت عقيدتها الدينية وبراعتها التجارية غير منفصلتين بالصورة التى يتمناها المرء – عند فحص استثمارات زوجها بعد موته أنها تمتلك نحو تسعة أعشار موارد العالم من خام الملبدنوم · وانتابتها الدهشة للتشابه القائم بين اسم هذا العنصر واسمها ، وأيقنت أن هذا التشابه لا يمكن أن يكون وليد الصدفة ، وانما هو من صنع القدر ولا ريب · ولا مناص من أن تكون رسالتها المجيدة فى الحياة هى أن تطلق اسمها على عقيدة جديدة أكثر نقاء من أية عقيدة سابقة وتدر عليها ، فى ذات الوقت ، ربحا وفيرا ·

كان الأمر يقتضى تلقين استهلاك الملبدنوم للتابعين الذين ينبغى أن يحملوا اسمها ويطلق عليهم « الملبدنيين » · وسرعان ما نما وليد هذه اللحظة من التفكير المبدع الخلاق ، واستطاع أن يسير على ساقيه ألا وهما : العقيدة الدينية ، والبراعة التجارية · وحتى لا تتداخل الواحدة فى الأخرى قامت بتكوين شركة أطلقت عليها اسم « شركة المعادن المتحدة » ثم احتفظت بسيطرتها عليها دون أن يظهر اسمها · كما استطاعت فى الوقت نفسه أن تغرس عقائدها الدينية فى عقل « زرويا تومكنز » وهو رجل يصغرها سنا كان قد حقق نجاحا باهرا كواعظ معمدانى · لكنه كان قد اختفى عن الأنظار لأنه انحرف قليلا عن جادة الصواب وسيطرت عليه شـــخصيتها القوية سيطرة تامة ، فكان يتقبل كل كلمة تنطق بها كما لو كانت ناموسا الهيا . وامتلأ حماسا بالغا لتجديد الجنس البشـــرى عن طريق انجيلها الحقيقى · ولما كانت قدرته على التنظيم لا تقل شأنا عن غيرته ، اوكلت اليه – دون تردد – المهام الدنيوية لرابطة الملبدنيين الأخوية المقدسة ·

أما طائفة المغنطيسيين الشماليين فتدين بتكوينها – وان كان أنصارها أنفسهم لا يدركون هذه الحقيقة – لرجل مرموق يدعى « سير ماجنوس ثورت » · وكان هذا الأخير شخصية بارزة فى حياة كندا الوطنية ، يملك

مساحات واسعة من الأراضى فى الشمال الغربى الخاوى التى كان يعتقد أنها تحوى ثروة معدنية ضخمة ٠ وقرر أن يضع منطقة الشمال الغربى « على الخريطة » ٠ فاســـتخدم علماء الجغرافيا الطبيعية لتحديد موقع القطب المغنطيسى بدقة أكثر مما تم حتى الآن ، واستبان له ، كما كان يأمل ، أنه يقع فى منتصف الأرض التى يملكها تماما ٠ كما اكتشف ــ أو بالأحرى اكتشف العلماء الذين استخدمهم ــ أن جبلا بركانيا يقع عند القطب المغنطيسى ، وأنه سواء بفعل البراكين أم نتيجة لنشاط اشعاعى ، فان التربة فى المنطقة المجاورة دافئة والجليد فيها يذوب ، كما أن ثمة بحيرة لا تتجمد مياهها حتى فى فصل الشتاء ٠ وبعد أن تجمعت لديه هذه الحقائق فكر فى القيام بحملة واسعة النطاق ، واستطاع ، بمساعدة أستاذ فى علم الأجناس كان قد درس معتقدات الاسكيمو وهنود الشـــمال ، أن يصوغ المبادىء الأساسية للعقيدة التى باتت مذهبا لطائفة المغنطيسيين ٠ بيد أن السيطرة على الناس لا تتم بالمنطق المجرد وحده كما حذره علماء الأجناس وعلمته تجاربه فى سوق الأوراق المالية ٠ وحتى ان كانت الأسانيد المؤيدة للمذهب الجديد الذى أراد نشره ينبغى أن يقبلها المنطق دون تردد فانه راح يبحث عن مفتاح ، سرعان ما عثر عليه ، يقربه الى قلوب الناس حين ترق وتصبح أكثر استعدادا ٠ لقد أدرك أنه ليس من مصلحته أن يكون رسولا للمذهب الجديد ، وانما لابد أن يكون الرســـول ديناميكيا صوفيا فى آن واحد ، شخصا قادرا على أن ينفذ الى أعماق القلب البشرى، انسانا يستطيع أن يدخل فى أعماق الرجال والنساء ذلك السلام الدافق العجيب الذى يبدو كأنه يجلب السعادة ، لكنه لا يأتى بالكسل والخمول ٠

وترك مهمة البحث عن مثل هذا المؤسس لمساعده عالم الأجناس الذى قام بمقابلة رؤساء المذاهب فى لوس انجلوس بشيكاغو ٠ وذهب حيثما وجد البحث الجاد عن معتقدات جديدة ، دون أن يكشف عن هدفه بناء على توجيهات سير ماجنوس ، وفى نهاية المطاف أعد قائمة قصيرة من ثلاثة أشخاص رفعها الى سير ماجنوس ليصدر قراره الأخير بشأنها ٠ وكان بين الثلاثة من رأى سير ماجنوس أنه شخصية بارزة دأبت على أن تلهب حماس شعب « ويندبيج » الذى تنتمى اليه بالوعد بظهور اعلان عظيم ، لكنها لم تكن بعد قد أعلنت طبيعة هذا الاعلان ٠ لقد كانت امرأة عملاقة ، طولها ستة أقدام وأربع بوصات وأبعادها الأخرى بنفس الحجم ٠ وكانت تذكر الكثيرين ممن شاهدوها بتمثال الحرية ، بل انها كانت تبدو أكثر من هذا التمثال روعة وجلالا ٠٠ ولم يكن يعيبها سوى أمر واحد هو اسمها

« اميليا سكجز » • ولما أخذ سير ماجنوس يفكر فى المستقبل الذى يتمناه لم يستطع أن يتصور خضوع العالم لملكة سكيجز أو لعقيدتها • وتذكر مصير طائفة « مجلتون » التى لم يكن يؤخذ عليها غير لقبها • وظل أمام هذه المشكلة مترددا لفترة ما لبث بعدها أن عثر على حل موفق • وما أن توصل الى هذا الحل حتى قرر أن الوقت قد حان ليكشف لاميليا العظيمة ما ادخره لها من مصير عظيم •

فقال لها « أتبين ، يا مس سكيجز ، من عظاتك البليغة أنك تحسين بمصير عظيم ينتظرك ، ولقد شكاتك الطبيعة بهدف السيطرة على البشر ، لا بروعة هيكلك فحسب بل بعظمة النفس التى تسكنه أيضا ، فقد خلقت كما تعلمين ، لتؤدى رسالة • بيد أنك لم تدرى حقيقة هذه الرسالة الا الآن ، ولقد اوكلت الى ، كمبعوث العناية الالهية المتواضع » مهمة ارشادك الى سبيل المجد الروحى المتألق الذى تعلمين أنه مصيرك » • وراح يشرح لها المبادىء التى أعتنقها فيما بعد طائفة المغنطيسيين الشماليين •

وبينما هو يتحدث ، امتلأت هى بحماس روحى ، ولم يبق لديها مكان للشك ، فكان ذلك هو الانجيل الذى تبحث عنه ، انه الحق السعيد الذى يحيل كندا أرضا مقدسة ويدفع المؤمنين فى ربوع الأرض الى القيام برحلات متواضعة لزيارة حرمها المقدس الذى يأخذ بالألباب •

لم تبق أمام سير ماجنوس سوى خطوة واحدة • فابتدر المرأة بالقول « وأنت تكافحين فى ميدان الجهاد الروحى ينبغى أن تحملى اسما مغايرا لما هو لك فى العالم ، اسما مقدسا يعكس كل مقطع من مقاطعه مهمتك المقدسة • ومن ثم سـوف تعرفك أمم الأرض قاطبة بلقب جديد رائع • ولسوف يناديك الجميع :

« أورورا بوهرا »

وتركته نشوى يملأ نفسها الهيام الصوفى والهدف السـامى ، ومن تلك اللحظة صار التعاون بينهما وثيقا ، الا أنها احتفظت بدوره سـرا مطويا نزولا على توجيهاته •

ولم يمضى وقت طويل حتى أحرزت « أورورا بوهرا » نجاحا باهرا ، وطار صـيتها بين دوائر واسـعة النطاق • وكان من حظها أن نعمت بمساعدة « مناسا ميرو » ، وهو رجل رغم ما أوتى من قدرة فائقة على التنظيم ، الا أنه كان يفتقر دائما الى الثقة بنفسه ، والى تلك السمات

الروحية التى كان مغرما بها فى شبابه كلما تذكر أمه القديسه · ولقد عوضته عن هذا النقص « أورورا بوهرا » التى كان يكن لها تقديسا مخلصا لا هوادة فيه · ولو سأله أحد عما اذا كان يحبها لاشتاط غضبا ازاء هذا التجديف · فلم يكن يشعر نحوها بحب بل بعبادة · ولقد ألقى عند قدميها بمقدرته الفائقة فى تدبير أمور الحياة ثم تركها حرة طليقة تعبر بطلاوة عن ذلك الهيام الروحى الذى عليه يتوقف تأثيرها على الرجال والنساء ·

الفصل الرابع

من المشروعات الأولى التى يرجع الفضل اليها فى نجاح جماعة « المغنطيسيين الشماليين » اقامة المصح الدائرى العظيم حول القطب المغنطيسى ، لقد أطلق على هذا المصح « البيت المغنطيسى » · وفى هذا الصرح الضخم اتجهت رأس كل سرير نحو القطب الشمالى المغنطيسى الذى كان يحتل مركز الفناء الدائرى · أما مؤخرة كل سرير فقد وجهت صوب القطب الجنوبى المغنطيسى ، وبفضل موقع هذا المصح كانت النتائج العلاجية للمغنطيسية الأرضية أعظم منها فى أى مكان آخر ··· وباطاعة النظام العادى المحدد كان السواد الأعظم من التابعين والأنصار ينعمون بصحة عقلية وبدنية ، لكن كان هناك من تهم لاصقة بهم – فى الأشهر الأولى – من تتلمذهم – آثار النورستينيا (خدر عصبى) التى كانوا قد جاءوا بها من أيام الكفر وعدم الايمان · فكانت مثل هذه الأرواح القلقة تنقل – بشرط أن تتوافر لديهم الوسائل اللازمة – بطائرات نفاثة فاخرة الى المصح القطبى حيث تقدم اليهم كل ألوان الترف ويسمح لهم ، لأغراض طبية ، بشرب الخمر والتدخين المحظورين على المؤمنين فى أى مكان آخر ·

وكان من بين رواد المصح الأوائل ، من المصابين بالنورستينيا ، رجل يدعى « جيديديا جيليف » كاد أن يفقد صوابه لوقوعه فى هوى – لا طائل

من ورائه ــ جعله يتعلق بسيدة بارعة الجمال اسمها « هاريت هملوك » ، ولكن بفضل قوة « أورورا بوهرا » المغنطيسية استطاع أن يبرأ من حبه تماما ، وعرفانا منه بجميل الشفاء أقام حفلا ألقى فيه قصيدة خالدة صارت بعد ذلك نشيد الزحف الذى يردده المغنطيسيون ، والذى بعث الحيرة والدهشة فى نفس المندوب النيبالى ·

وعند مركز القطب المغنطيسى الذى كان فى قلب الفناء الدائرى ، ارتفعت سارية يرفرف فوقها فى معظم الأحايين علم المغنطيسيين الذى يمثل رأس « أورورا بوهرا » وقد انبعث منها نور الشفق الشمالى ليضىء فى جميع الاتجاهات ، وبعد فترة كان المؤمنون التابعون يجبرون خلالها ، عن طريق التهديد بعقوبات قاسية ، على تحويل أنظارهم ، يحل محل العلم ، مرة كل يوم ، وكر تلقى منه الكاهنة العظيمة وهى ترتدى ثيابا سوداء فضفاضة ، كلمات الحكمة الملهمة ، وكان فوق رأسها تســـعة مكبرات للصوت تتخذ ثمانية منها وضعا أفقيا متجها صوب الشمال والجنوب ، والشرق والغرب ، والشمال الشـــرقى ، والجنوب الغربى ، والجنوب الشرقى ، والشمال الغربى · لقد كانت هذه أبواقا من فضة الى جانب مكبر آخر ، بوق من الذهب الخالص ، يتجه الى أعلى كى تسمع كلماتها فى السماء كما تسمع كلماتها على الأرض ·

وحين وقفت فوق قاعدة تمثال لا يراه التابعون المخلصون من أسفل، فى قاعة مستديرة تدور ببطء ، جدرانها من أكثر أنواع الزجاج شفافية ، بذراعين يلوحان كما لو كانا فى حالة احتضان عنيف وجسمها كله يتمايل ويهتز ببطء كما لو كان منجذبا بقوة التيار المغنطيسى ، بعينين واسعتين ثاقبتين وحالمتين فى آن واحد ، تومض أحيانا ويكتنفها الغموض أحيانا أخرى ــ حين وقفت هكذا طفقت تتكلم · وكان صوتها ، الذى يختلف عن أى صوت ، قد تناهى الى آذان سامعيها فى أى مكان آخر ، يجمع بين روعة رعد الجبال القاصف ورقة اليمام الهادر ·

كانت تقول : « أخواتى واخوانى الأعزاء فى المغنطيسية ، لمن دواعى غبطتى أن أعود الى الحديث اليكم عن عقيدتكم المقدسة ، وأن أنقل اليكم ، بفضل ما وهب لى من قوة خفية ، قوة أمن الأرض المغنطيسية وسلامتها فلهيبها يسرى فى عروقى ، وهدوءها الذى لا يوصف يستقر فى أفكارى · ولسوف تنالون ، مستمعى الأعزاء ، كليهما وان يكن بدرجات أقل · فهل تتسم حياتكم بالقلق والاضطراب ؟ وهل تخشون أن يضعف عن ذى قبل

الحب العارم الذى كان يكنه لكم يوما أزواجكن أو زوجاتكم ؟ ألا تصادف أعمالكم نجاحا ؟ وهل يعاملكم جيرانكم باحترام أقل ـ حسب يقينى ـ مما تستحقون ؟ لا تنزعجوا ولا تضطربوا أيها الأصدقاء الأعزاء • فأذرع أمن الأرض العظيمة تضـمنا جميعـا ، وما أحزانكم المؤقتة الا اختبـار لايمانكم • فاطرحوا عنكم أحمالكم ولتفض عليكم الصحة المغنطيســية ، ولتكن المحبة والقوة والبهجة من نصيبكم كما هى من نصيبى » •

كان الذين ينصتون اليها يتأثرون جميعـا بطرق متباينة ، فالمنهوك القوى تجددت قوته ، واليائس امتلأ رجاء ، ومن كدرت المشكلات صفو حياتهم أخذوا يحســون بتفاهتها ، ووجد الجميع أنفســهم ، فى تعبدهم لأورورا ، متحدين فى انسجام متبادل •

وكان للمولبدنيين قصــرهم المنعش للنفس والمجدد للقـوى ، الذى أقيم فوق قمة جبل « أكمى ألب » بكلورادو • وهو جبل يبلغ ارتفاعه زهاء عشرة آلاف قدم ، ويغطيه الجليد خلال ثمانية أشهر من كل عام ، بينما يبدو فى الشهور الأربعة الباقية وقد تحلى بالمروج الجبلية التى يكسوها العشب والزهور البرية • ومن فوق قمته يشاهد المرء منظرا بديعا اذ تمتد فى كل اتجاه الجبال والوديان والغابات والأنهار • كما يرى من على بعد نهر كلورادو الأحمر وهو يشق طريقه المتعرج عبر الصخور • ولم يكن جمال المنظر وحده هـو الذى أوحى للسيدة « موللى • ب • دين » باختيار هذا الموقع ليكون مقرا لقصرها ، بل لأن له فى نظرها ميزة أخرى علها تفوق ماعداها من مزايا ، فقد كان جبل « أكمى ألب » يقع فى قلب منطقة الملبدنوم التى تفرض عليها سلطانها • وكان قصر الانعاش المجدد للقوة يتربع فوق قمته ويعرف فى طول البلاد وعرضها « بمصح أكمى » • ولشدة انحداره لم يكن الوصول اليه ممكنا الا بطائرة « الهيلوكبتر » • فكانت الطائرة تحمل الرواد الى « دنفر » ثم ينتقلون الى احدى طائرات الأسطول الضخم الذى يقف على أهبة الاســتعداد فى انتظار رواد تلك المنشأة الفاخرة •

ولعل مصح « آكمى » لم يكن يرقى ، فى مظهره الى مستوى مصح المغنطيسيين الا أنه لم يكن يقل عنه البتة من حيث الراحة والمتعة • والواقع أن الرواد الجدد كانوا يشعرون بشىء من التبرم مما تضمه قائمة الطعام من أغذية غير مألوفة • ففى أول غذاء تناولوه ، قدم لهم « موليدا شيوس » و « موليجاتونى » و « موليب بوليب » ولحم الضأن مضافا اليه ملبدنوم

و « موليفلويس برننجوس » وغيرها من ألوان الطعام ، فقد كانت « موللى · ب · دين » حريصة على تجنب اتباع نظام موحد يبعث فى النفس الملل ، ومن ثم اتخذ الطعام الذى يحتوى على عنصر الملبدنوم أشكالا متباينة فى أمسيات مختلفة · وكان ثمة فارق شاسع بين الجو الذى كانت تهيئه « موللى · ب · دين » لرواد قصرها وذلك الذى أضفته « أورورا بوهرا » التى كانت تؤمن بقوى الأرض الخفية الغامضة وتدعو الى نوع من التقبل السلبى كأساس لعمل قوى لاحق · أما « موللى · ب · دين » فكانت ترى على النقيض من ذلك ، أن تذكى فى كل فرد قوته الخاصة وارادته الذاتية وتحكمه فى مصيره ، فلم تكن تؤمن بالاعتماد على معونة خارجية · وكانت فى خطبها المؤثرة المذاعة التى كان يجبر رواد المصح على سماعها قبل تناول طعام العشاء ، تطلب الى كل رجل وكل سيدة ، بل والى كل طفل ، أن يعتمد على ما لديه من رصيد العزيمة الذى لا مناص من أن يستند اليه جميعنا كملاذ أخير ·· وابتدعت أسلوبا لتنمية هذه القوى :

فكانت تتساءل : هل تشعر باحجام عن النهوض من فراشـــك فى الصباح ؟ لا تذعن له ، وابدأ نهارك بقرار حاسم للارادة ، ثم امتط حصانك الآلى · وبعد خمس دقائق من التمرين الشاق بهذه الأداة الصحية كرس نفسك للتدريبات البدنية دون معاونة · المس أصابع قدميك بيديك تسعا وتسعين مرة مع الاحتفاظ بالركبتين مشدودتين كعصا صلبة · ولن تجد بعد ذلك مشقة فى القيام بحمامك البارد ، ولو كان الماء جليدا ذائبا · وبعد الانتهاء من التزين ، اهبط الى الطابق السفلى حيث تتناول طعام الافطار الجماعى بشهية مفتوحة وبقوة فائقة فى تأهب واستعداد لما يأتى به اليوم · هل تصلك رسائل مليئة بالمعضـــلات العويصة : ماذا تفعل ازاءها ؟ فى مقدروك التخلص منها بقدر يسير من القوة التى استمددتها مما مارسته من تمرينات قبل تناولك طعام الافطار · هل انخفضت قيمة استثماراتك ؟ لا تقلق ، فذلك الوضوح الفكرى المستمر من الحصان الآلى سوف يمكنك ، دون مشقة ، من أن تختار بحكمة فائقة ، مشروعات جديدة لا شـــك فى نجاحها مستقبلا · وان راودتك الأفكار الشريرة التى قد توجد حتى فى هذا القصر المقدس ، وان سمحت لنفسك بالرغبة فى قضاء فترة أطول فى الفراش أو فى حمام أقل برودة ، وان اشتهيت لحم الضأن خاليا من الملبدنوم ، وان ســاورك التفكير الرهيب ، باغراء الشــيطان لاشـك ، فى أن مفعول السترونتيوم كمفعول الملبدنوم ·· فى هذه الحالات الرهيبة جميعها أى فى واحدة منها بوسعنا أن نحظى بالخلاص باتباع قاعدة بسيطة هى : عليك فى باديء الأمر أن تركض لمدة عشر دقائق حول فناء القصر ثم افتح ،

كيفما اتفق ، الكتاب المقدس « ملبدنوم ، علاج الأمراض المستعصية » ٠ وفى أى موضع تفتح فيه هذا الكتاب سيقع بصرك على آية تزودك بالصحة ٠ فيتسنى لك ، بقوتك الذاتية ، أن تدفع عنك الأفكار البشعة التى حاولت تحويل مجرى حياتك النقية غير الملوثة ٠ وفوق هذا كله تذكر الحقيقة التالية : أن الخلاص ليس فى ميدان الفكر بل فى مجال العمل ، العمل الشاق ، العمل الذى يعطى الصحة ويولد القوة ٠ وحين تهدد ألاعيب الشيطان وحيله بايقاعك فى الشرك ، فلا تلجأ الى التفكير المضنى بل الى العمل ، العمل الذى سوف يحدده الكتاب المقدس : العمل ! العمل ! العمل باسم الملبدنوم المقدس ٠

الفصل الخامس

لقد عهدت « موللى ٠ ب ٠ دين » و « أورورا بوهرا » بمهمة ادارة القصرين لوكيليهما المبجلين « تومكنز » و « ميرو » ٠ ولم يكن خافيا على كل من هذين الرجلين أن الطائفة التى يرعى شئونها عرضة لعداء الطائفة الأخرى ٠ كما كان كلاهما على يقين تام من أن الطائفة المعادية تضم سفلة وأوغادا لا يتورعون عن القيام بما من شأنه القضاء على منافسيهم ٠ ومن ثم وضع كل منهما ، لا فى الحجرات العامة فحسب بل فى كل غرفة من غرف النوم ، أجهزة « الدكتافون » التى كانت تسجل ما كان يفترض أنها محادثات الرواد الخاصة ٠ واستبان لكليهما أن هناك ساخطين بل ومرتابين لا يخفون شكوكهم من بين الذين حصلوا على اذن بدخول القصر بطريقة أو بأخرى ، رغم ما كانت تتسم به لجنة الاستقبال من حيطة وحذر بالغين ٠

وبفضل جهاز سرى بارع فى « آكمى ألب » أمكن تتبع أثر هذا السخط واكتشاف أن رجلا يدعى « فاجنر » كان مصدره ٠ وكان السيد « فاجنر » قد بدا للادارة أنه عين الانسان الذى أقيم المصح من أجله ، فقد كان ، على حد علم الادارة ، رجل أعمال ناجحا أصابه التردد ، فكان يقول :

« لقد قمت بدراسة مزايا هذا وذاك وتبينت أن الأسانيد المؤيدة لكليهما متعادلة تماما ٠ فماذا أفعل فى مثـل هذه الظروف ؟ » ٠ كان ثمة خطر أن تتبدد ثروته من جراء ذلك فحاول الخلاص من هذا النقص بالانضمام الى جماعة الملبدنيين ، وبدا واضحا أن الأمل كان يراوده فى الشفاء ٠ لكن رغم ما طرأ على حاله من تحسن لم ينل الشفاء التام ، وتقرر أنه من الضرورى أن يقضى فترة فى « آكمى ألب » ، فوافق اذ كان لا مفر من الاذعان لأولى الأمر ، وبعد أن عهد بأعماله الى مساعديه مضى الى دار الراحة والهناء حيث يسودها جو صحى ٠

بيد أن مناقشاته هناك كانت من النوع الذى يتعذر الموافقة عليه ٠ لقد قال مخاطبا شخصا كان قد تعرف عليه بالصدفة عقب تناول طعام العشاء : « عجيب ، كما تعلم ، تأثير الملبدنوم على جماعة الملبدنيين ٠٠ بيد أن هناك من الأمور ما يبعث على الحيرة فى نفسى ولا أجد لها حلا فى الكتاب المقدس فما دام الملبدنوم يتركز أساسا فى كلورادو لا يسع المرء الا أن يفترض أن سكان هذه الولاية يستهلكون منه أكثر مما يستهلكه أولئك الذين يعيشون فى أجزاء أخرى من هذه الجمهورية العظيمة ٠ لكن بفحص الاحصائيات الدقيقة لم أكتشف أى فرق جوهرى بين صحة من يقطنون كلورادو وصحة سكان الولايات الأخرى ، لا أنكر أن هذا الأمر يحيرنى الى جانب أمر آخر حملنى على التأمل والتفكير لقد طلبت من طبيب أعرفه أن يفحص بدقة كمية الملبدنوم فى جسم العضو المكرس من جماعة الملبدنيين الذى استهلك القدر الذى وصفه زعيمنا المبجل من المعدن المقدس ، وتلك التى فى جسم مواطن عادى ٠ وثبت ــ لدهشتى ــ أن ما يحتفظ به جسم عضو الجماعة الصحيح البدن من هذا العنصر لا يزيد عما فى جسم أى انسان يتناول طعاما عاديا ٠ ويقينى أن ثمة جوابا لمثل هذه الأمـــور المحيرة ، عساى أن أهتدى اليه ٠ اننى لا أريد ازعاج مستر تومكنز فهو رجل جد مشغول ، فهل لك ، من وسيلة تقترحها لحل مشكلاتى ؟ » ٠

واتضح انه يفوه بمثل هذه الأحاديث الى عدد من الناس فى « آكمى آلب » ٠ ومع ذلك لم يتسن للمسئولين أن يثبتوا ضده خطأ محددا ، فاكتفوا بأن قرروا اعلان شفائه وارجاعه الى مسقط رأسه ٠

ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت فى قصر المغنظيسيين مشكلة مماثلة الى حد ما ٠ ذلك أن رجلا يدعى مستر ثورنى كان ، على حد زعمه ، رحالة الى البلاد النائية ، عاد من رحلة ، بعد أن أنهكت قواه المصاعب التى جلبتها عليه سلسلة النكبات التى حلت به ٠ وفى حال من القنوط

والاعياء طلب القوة المانحة للحياة عن طريق جماعة المغنطيسيين ، وصار من التابعين وتمنى له أصدقاؤه من المؤمنين تحسنا سريعا ، بيد أن التقدم كان بطيئا على نحو يدفع الى اليأس والقنوط · وبدا غير قادر على أن يسترد الحماس الذى حمله على القيام برحلاته · وقرر المسئولون أن شفاءه لن يتحقق الا بزيادة للقطب المغنطيسى · وكانت حكمة أولئك الذين أدركوا تدبيرات منافسيهم قد أوحت باستخدام أجهزة « الدكتافون » كما هو الحال فى « آكمى ألب » ، فاستبان أن محادثات مستر ثورنى انما تهدف الى اضعاف الايمان الراسخ لمن يستمعون اليه ، وان كانت لا تتضمن ما يقطع باعتبارها ضربا من الهرطقة · وثارت الشكوك حوله وأتهم بأنه لا يكن الاحترام الواجب لأورورا بوهرا التى لم يكن المؤمن يراها الا حين تظهر فى خدرها · ودأب على أن يسأل من بجواره : أما فكرت فى مدى طول أورورا ؟ فيجيبه الجار بلهجة تنم عن شىء من الرعب والدهشة : كلا ، كما لا أعتقد أن السؤال لائق · فيستطرد مستر ثورنى : « حسنا ، انها ، على أية حال ، امرأة حقيقيةمن لحم ودم · وبحكم ممارستى لعمليات المراقبة فى رحلاتى تجاسرت على أن أقيس طولها بمزولتى · ومع استبعاد قدميها اللتين لم يتسن لى رؤيتها ، تبينت أن طولها يتراوح بين ستة أقدام وثلاث بوصات ونصف البوصة ، وستة أقدام وأربع بوصات ونصف بوصة · ولم يمكن لتقديرى أن يكون أكثر دقة بسبب انكسار الأشعة الضوئية على الزجاج الذى نراها من خلاله · بيد أنى تأكدت بما لا يدع مجالا للشك أن منظرها كامرأة لا بأس به » ·

ولم تكن المشكلة فى التفوه بهذه الألفاظ عن الالهة المسيطرة ، فمما ينبغى التسليم به ، وان يكن فى ألم ، هو أن ثمة من تأثروا بوجهة نظر مستر ثورنى فأضحوا أقل ميلا من أن ينسبوا الى تلك السيدة النبيلة قوى خارقة للطبيعة · بل كان يتخطى حدود ذلك أينما وجد التربة الصالحة لغرس بذور ما يكنه لتلك السيدة من عدم احترام · ودأب على القول « لا يخفى عليك أن هناك حالة لا يعرفها سوى نفر قليل من البيض غيرى لا أجد لها تفسيرا على أساس المبادىء المغنطيسية التى ندين بها جميعا · هناك فى منطقة نائية بالتبت واد ضيق شديد الضيق على نحو غير مألوف يكاد معه أن يكون شقا · ويتجه هذا الوادى كما أكدت لى ملاحظتى ، صوب القطب المغنطيسى الشمالى مباشرة ، ورغم ضيق الوادى فان هناك من يقضون الصيف فيه لما يحتويه من الماس ، وكانوا يضطرون الى النوم ورؤوسهم متجهة نحو الشمال أو نحو الجنوب اذ كان بعضهم يختار الشمال والبعض

الآخر يفضـــل الجنوب ، وكان يمكن للمرء أن يتوقع أن الذين ينامون ورؤوسهم متجهة صوب الشمال يتفوقون على أولئك الذين يؤثرون ماعداه فى شتى النواحى ·· لكن رغم انى قضيت فيما بينهم وقتا طويلا واستفسرت عن ماضيهم ، فلم أتبين أى فارق كذلك الذى تجبرنا عقيدتنا المقدسة على التسليم به · ويقينى أن ثمة ردا قاطعا لكنى لم أستطع تصور ماعساه أن يكون ، لو كان لك ، أو لأى من أصدقائك ، أن تنقذنى من حيرتى لنلت عظيم شكرى وبالغ امتنانى » ·

وحين كشـــفت أجهزة « الدكتافون » عن عادته فى طرح مثل هذه الأسئلة على غيره من رواد القصر الدائرى ، قرر المسئولون أنه باحث عن الحقيقة مخلص ولا ريب ، الا أن أسلوب بحثه وطابعه لا يستحقان التشجيع ، ومن ثم أعلن شفاؤه قبل الأوان ، وأعيد الى بلده مع تحذيره بأن يتأمل ، لو حدث ذلك ، فى صمت فى تلك الأسئلة الغريبة التى أثارها بشىء من التهور والاندفاع ·

الفصـــل الســـادس

نجحت الحركتان وازدهرتا برغم ما صادفهما من مثل هذه الصعاب الهينة ، فحظيت طائفة المغنطيسيين بتأييد كل فرد فى اسكندناوا ما خلا طبقة المثقفين ، كما حذت حذوها أيسلند وجرينلاند حيث راح رجال العلوم يبرهنون ، بما لا يدع مجالا للشك ، على أن القطب المغنطيسى سوف يكون بمرور الوقت من نصـــيبهم · أما طائفة الملبدنيين فازدهرت فى الولايات المتحدة · وفى ذهول تخلت ولاية « يوتا » حيث اكتشفت كميات كبيرة من الملبدنوم ، عن كتاب « المرمون » واستعاضوا عنه بكتاب « الملبدنوم علاج الأمراض المستعصية » ، ومكافأة لهم على اعتناقهم للايمان الصحيح ، وافقت « موللى · ب · دين » على ادماج « يوتا » فى الأراضى المقدسة · أما الشباب الحائر فى ربوع العالم الغربى الذى تعذر عليه أن يختار

صـــــادقا ، فى تعبده ، بين الفاتيكان والكرملين فقد وجد راحته العقلية والعاطفية فى مذهب أو آخر من المذهبين الجديدين ·

وفى انجلترا حيث كانت الطائفتان متعادلتين تماما ، كان خطر وقوع صراع عنيف بينهما أشد منه فى أى مكان آخر · ولم تعد المسابقات تثير الاهتمام ، وطوى النسيان فرق كرة القدم القديمة ، ولم تجذب الجماهير سوى المباريات العظيمة التى تقام بين أنصار الملبدنوم وأتباع المغنطيسيين ودخلت الطائفتان فى سباق لا فى كرة القدم فحســـب بل فى جميع ألوان الرياضة بنجاح متأرجح ، دون أن يكون النصر الحاسم الدائم من نصيب أيهما · واكتشف ، فى شىء من الدهشة والفزع ، أن الجماهير لم تعد حسنة الطوية ، وأن المعارك تنشب بين الأنصـار المتعصبين للمذهبين المتنافسين · واقتضى الأمر فى النهاية اتخاذ قرار بفصل الملبدنيين عن المغنطيسيين فيتخذ جانب منهما مكانه على اليمين والآخر على اليسار · وأما الذين أعلنوا حيادهم فكان ينظر اليهم بعين الازدراء ويطلب اليهم أن يقفلوا راجعين الى ديارهم ·

وكان من دواعى غبطة المتعلمين أن يكسبوا ود الطرفين ، ولم يكن هذا أمرا يسيرا ، فكان هؤلاء المهادنون يواجهون بالقول : « من ليس معنا ، فهـو علينا » · وبرغم ذلك وجدت محـــاولة دائبة للتوفيق بين الطائفتين ، ونشرت صحيفة « تمبورا سبلمنترى ليترز » مقالا عميقا كاشفا حول المذهبين جاء فيه : « حرى بنا أن نسلم بأن الفكر الناقد المتزن تقابله أمور عسيرة الفهم فى كل من الانجيلين اللذين يجلبان آمالا جديدة وحياة جديدة للغرب المتعب المنهوك القوى · لكن أولئك الذين تشـــربوا التقليد العظيم واستوعبوا رسالة جميع المفكرين العظام من أفلاطون حتى القديس توما الأقوينى ، لن يرفضوا باستخفاف العقائد الجديدة وان بدت مستعصية على الفهم ، كما كانت حال العقيدة المسيحية بالنسبة لترتليان الذى تقبل بقلب خالص ، المبادىء الجديدة التى تتخطى حدود المنطق رغم استحالة فهمها ، بل وبسبب هذه الاستحالة عينها · وسوف يرحب جميع الذين يفكرون تفكيرا سديدا ، بغض النظر عن المشكلات التى تواجههم فى الاختيار بين الملبدنيين والمغنطيسيين ، بما هو مشترك بين الطائفتين · والى عهد قريب ظلت الفلسفة الآلية تسود أفكار فلاســفتنا الأفذاذ وهذه الينابيع العميقة للحكمة التى لا تستمد من الملاحظة المجردة للحقيقة البشعة ، بل تفيض فى القلب المتضع حين ينفتح لعمل روح الحق العظيم ·· من تلك الينابيع يستمد الملبدنيون والمغنطيسيون على السواء نشاطا وانتعاشا ·

لقد ولى أدعياء العلم الأصلاف ، وولت الحقيقة الجوفاء التى نادى بها أولئك الذين أغفلوا الحقائق الخالدة التى يقوم عليها عالمنا الغربى ، فعقيدة الملبدنيين والمغنطيسيين على السواء تتضمن الكثير مما يرحب به كل محب للحكمة ، حتى أنه لا يسعنا الا أن نأســف على ما هما عليه من تناحر وتنافس • ونحن نؤمن ، ويشاركنا كثيرون هذا الايمان ، بأن الاتحاد أمر ممكن ، ولو تحقق لزود الايمان بقيمنا الغربية بقوة راسخة لا تتزعزع ، نحتاجها فى صراعنا الخطير مع الحاد الشرق » •

كان هذا الرأى الرزين يحظى بتأييد ذوى النفوذ والسلطان • فقد كانت الحكومة البريطانية الموزعة بين حبها للكومنولث واعتمادها على الولايات المتحدة ، تنظر بقلق بالغ الى الأزمة المتفاقمة بين كندا والنصف الغـــربى من الولايات المتحدة ، تلك الأزمة التى قد تؤدى ، مالم تخف حدتها ، لا الى فشل الأمم المتحدة فحسب بل الى انهيار حلف شـــمال الأطلنطى على حد سواء • وكان أنصار الجماعتين فى انجلترا متماثلين على وجه التقريب ، وكان كل من الجماعتين قويا لكن واحدة منهما لم تأمل فى أن تكون لها السيادة • وتقدمت الحكومة البريطانية للســـيدين تومكنز وميرو بمقترحات لعقد مؤتمر وبتوصيات جادة للتعايش السلمى على الأقل ، بين الطائفتين •

وتشــاور الســـيدان تومكنز وميرو عن طريق المكالمات التليفونية البعيدة مع رئيستى الكهنة : موللى • ب • دين ، وأورورا بوهرا ، وفى الخفاء بحثت أورورا بوهرا الأمر مع سير ماجنوس نورث ، وأسفرت هذه المشاورات العديدة عن قرار بعقد مؤتمر كبير بقاعة ألبرت يســـتهدف الوصول الى نوع من الاتفاق عن طريق المناقشة العلنية هذه هى النتيجة التى كانت الحكومة تأمل فى تحقيقها على أسوأ الفروض ، بيد أن الآمال التى كانت تراود الطائفتين مغايرة • فكانت كل منهما على يقين تام من مناعتها ، بحيث لم يكن يخامرها شك فى النصــــر المبين فى أية مجابهة علنية • وعلى أساس هذه الثقة وافق كل جانب على مقترحات الحكومة •

واتفق الطرفان على أن يعقد المؤتمر الكبير برئاسة أستاذ الديانات المقارن بجامعة أوكسبردج ، ذلك الباحث الحكيم المهذب الذى كان ملمـا بكل ما له صلة بديانة شعب تازمانيا المنقرض ومعتقدات الهوتنتوت ومذهب الأقزام ، ومن ثم افترضت الحكومة أن بوسعه أن يظهر فهما ينم عن عطف لكل من الملبدنيين والمغنطيسيين ولكن خوفا من فشله ، اذ كان أكثر رقة

منه عنفا ، زودته الحكومة بفرقة قوامها بضع مئات من الجنود الأقوياء الذين لابد أن يجتاز كل منهم اختبارا دقيقا للتأكد من أنه لا ينحاز لأى من الجانبين . وأقيمت القرعة لتحديد أى الطرفين يســتقر على الجانب الأيمن ،وأيهما على الأيسر ، وانتهى الأمر بأن صار اليمين من نصيب المغنطيسيين واليسار للملبدنيين . وروعى هذا التقسيم على المسرح وفى القاعة وفى كل شرفة من الشرفات ، كما ترك ممر فسيح بين الجانبين ، وكان الجنود المحايدون طيلة انعقاد المؤتمر يروحون ويغدون فى هذا الممشى مزودين بأوامر مشددة لحفظ الأمن بأى ثمن .

وهبطت « أورورا بوهرا » و « موللى . ب . دين » من فوق جبليهما لتلهما أتباعهما المخلصين فى تلك المناسبة الحاسمة الخطيرة ، وجلست كل منهما على عرش بالقرب من وسط المسرح لا يفصل الواحدة عن الأخرى سوى اتساع الممشى . وكانت « موللى . ب . دين » تحب البشر جميعا ، لكنها كانت تبغض « أورورا بوهرا » كما كانت « أورورا بوهرا تعشق الناس جميعا ما خلا « موللى . ب . دين » . وبعينين سوداوين تشيعان عنفا وسخرية رمت موللى . ب . دين – بعد أن اســــتعرضت جمهور الحاضرين – أورورا بوهرا بنظرة قاتلة ، تحمل من السم الزعاف ما يبعث الرعب فى نفس شخصية أشد منها ضعفا . أما أورورا بوهرا فبعد أن حملقت فى السقف باستغراق ، جالت عيناها الواسعتان ، فى غموض ، بين صفوف الجماهير الغفيرة المحتشدة . وان بدت نظرتها أحيانا وكأنها موجهة الى العرش المقابل . ولاح كأنها لا ترى شيئا فى ذلك الاتجاه . وفى التأمل المستغرق فى القبة العظيمة فحسب غدت وكأنها تستسلم لتلك الأحاسيس النبيلة التى خلقت منها ما هى عليه .

ووقف السيدان تومكنز وميرو أمام مكتبيهما ، وقد تسلح كل منهما بمجموعة من الأوراق ، وعلى أهبة الاستعداد بجميع الحقائق والآراء المدروسة ليتسنى له التفوق على الطرف الآخر .

وخلف زرويا تومكنز مباشرة جلس ابنه ، خليفته المختار ، زاكارى ، الذى علمه أبوه باهتمام بالغ كيف يصون عقيدته من بعده . ولم يشك زاكارى لحظة فى مبادىء الملبدنيين ولم يتصور هنيهة أن مصيرا ينتظره غير مساعدة أبيه وهو على قيد الحياة وحمل رسالته عندما يناديه الموت الى مكان أكثر سعادة وهناء . بيد أنه كان شابا نحيلا مع أن غذاءه كان يتبل بقدر كبير من الملبدنوم . وفى أوقات فراغه كان يتجه بأفكاره الى

الشـــعر بدلا من العلوم الدينية ، ورغم الافتراض بأن الملبدنوم يجلب البهجة والانشراح الى قلوب المؤمنين ، كان زاكارى فريسة لمظهر ينم عن شىء من الحزن الذى كان مدعاة لخجل دفين • وكان يعتقد أن « قصيدة الى الخريف » للشاعر كيتس » مفرحة بلا داع ، فراح يكتب بنفســـه « قصيدة الى الخريف » مطلعها :

أوراق الخـــريف

وحـــزم الشـــعير

تثير التفكير فى الغد

وفى الأحـــزان وفى الثلج

وغالبا ما كان يعكف على العمل آملا فى أن يبلغ حالة المرح التى تساعد على الهضم ، والتى كانت مثل طائفته الأعلى •لكن رغم ما بذل من جهود اجتاح الحزن والوهن أعماق كيانه أينما لاذ بالفرار من الهرج والمرج فى مكتب الملبدنيين •

وأما خلف « مناسا ميرو » جلست مقابل زاكارى تماما « ليئه » ، ابنة ميرو التى كانت قد لقنت ، شأنها شأن زاكارى ، مبادىء العقيدة القويمة بكل حذافيرها بهدف أن تخلف أباها ، كما هى حال زاكاى • لقد كانت تشبهه فيما تعانيه من صعوبة فى أن تكون بالحالة النفسية التى يجب أن يكون عليها العضو « القيادى » • بل مرت بها لحظات لم تستطع فيها حمل نفسها على احترام أورورا • كما كانت تقضى فى العزف على « البيان » الأوقات التى تفرغت فيها من العمل فى مساعدة أبيها • فكان « مندلسون » موسيقارها المفضل مع أنها كانت ترقى الى مستوى تذوق موسيقى « شوبان » بين الفينة والفينة • وبرغم ذلك لم تكن تفضل الموسيقى الكلاسيكية بل الأغانى الرومانســـية القديمة مثل أغنية « يالســـعادة تروبادور وابنة شريف مقاطعة اســـلنجتون » • ولم تكن « ليئه » فائقة الجمال ، غير أن ملامحها كانت تنم عن عظمة وأبهة ، كما كانت عيناها واسعتين ينبعث منهما حزن وأسى •

كان طبيعيا أن يجد كل من زاكارى وليئه نفسيهما فى المؤتمر أكثر اهتماما بالطائفة الأخـــرى منه بطائفتهما • ورمى زاكارى أورورا بوهـــرا بنظرة خاطفة ، لكنه ما لبث أن تراجع فى اشمئزاز من ضخامة جسمها ،

كما التقت عينا ليئة لحظة بنظرة من نظرات « موللى · ب دين »الثاقبة فامتلأت من الرعب بما حملها على الرغبة فى الاختباء · وما أن مرت لحظة الذعر هذه حتى طابت نفس كليهما بمنظر الذعر المتماثل عبر المشى وتقابلت عيناهما ، وحتى تلك اللحظة كان كل منهما يظن أن من يناصر الفريق الآخر انما هو من الأوغاد والأشرار · ولكن حينما تقابلت هذه الأعين المرتجفة اهتز كيان كل منهما ، وطفق كل يفكر : « يقينا ، أن هاتين العينين لا تحملان شرا أو ضغينة ، ألا يكون أبى مخطئا ؟ ألا يمكن لما أحس بهمن مشاعر أن يجد له مكانا فى صدر عدو ؟ أليس ثمة عامل انسانى مشترك من شأنه أن يقضى على هذه الخلافات ؟ » · وبينما كانت هذه الأفكار تراود كلا منهما مضى الواحد منهما يحملق فى عينى الآخر ·

وفى هذه الأثناء كان المؤتمر يسير فى طريقه بينما كاد الشابان ، فى بادىء الأمر ، لا يدريان شيئا مما يجرى حولهما ·

ونهض البروفيسور ليلقى خطاب الافتتاح الذى كان قد أعده بعناية فائقة ، وبحث مع رئيس الوزراء كل كلمة تضمنها ليبعد أى اشارة ، ولو طفيفة ، للنقد أو ما يوحى ، من بعيد أو قريب ، بعدم الحياد ، وبشىء من العصبية تنحنح ثم انطلق يقول :

الكاهنتان المبجلتان ، سيداتى ، سادتى اننا جميعا على بينة من أن ثمة شقاقا فى هذا المؤتمر الكبير (ومن كل ركن فى القاعة دوى الصياح : الصوت ! الصوت !) لكنى أثق وأؤمن بأننا متفقون فى أمر واحد هو أننا نبحث باخلاص عن الحق وحين نجده نعلنه على الملأ » ·

وعند سماع هذه الكلمات انطلقت من جانبى القاعة صيحة مدوية : « كلا ، كلا ليس هذا فى الجانب الآخر » فأغفل البروفيسور المسكين ، فى شىء من الارتباك ، بعض العبارات الطلية واستطرد يقول : « حسنا ، ليكن ما يكون ، لكن أناسا ممن أكن لحكمتهم تقديرا بالغا يرون أن انقسام بلادنا العظيمة الى شيع متطاحنة يجلب معه اليوم ، كما جلب أيام حرب الوردتين والخلافات التى نشبت بين الملك والبرلمان فى القرن السابع عشر، خطر أننا نغفل — ونحن غارقون فى معاركنا الداخلية — ما يتهددنا من مخاطر فيما وراء البحار · تلك المخاطر هى التى حملت على التئام هذا المؤتمر آملا فى أن يتحد المذهبان ، دون أن يضعف حماسهم أو ينتقص شىء من عمق عقيدتهم الدينية ، وبهذا الاتحاد تشكل الطائفتان سلاحا منيعا لصد ما قد يهدد به الأعداء حياتنا القومية » ·

وهنا قوطع البروفيسور للمرة الثانية وانبعثت الصيحات من كل حدب وصوب تردد : « هذا أمر يسير فلينضم الآخرون الينا » ، ووجد نفسه مضطرا لأن يسقط مرة أخرى بضع صفحات من خطابه المعد ، ذلك لاعتقاده أن من الحكمة فض المؤتمر بسرعة فقد كان الجو مشحونا بالعواطف المتأججة . واختتم خطابه بالقول : « ليس لى أن أملى الاتفاقية التى ينبغى الوصول اليها . فالأمر متروك لكم اذ أننا نعيش فى كنف نظام ديمقراطى . ولا يسعنى الا أن أؤكد أن المناسبة هامة وأن مسئوليتكم بالغة وليبارك الله مداولاتكم » .

ولاح جليا أثناء القاء هذه الملاحظات الافتتاحية أن جو المؤتمر متأزم ،فاتبع القائمون عليه أسلوبا غير مألوف ،وهو أن يتولى مأمور الشرطة ، وليس رئيس المؤتمر ، مهمة اعلان جدول الأعمال . وبصيغة الأمر ، وهى لهجة مغايرة تماما للهجة البروفيسور ، أعلن أن من حق ثلاثة من كل جانب أن يدلوا بحديث لا تزيد مدته عن عشرين دقيقة ، وأن القرعة قد حددت أن يلقى الملبدنيون الخطاب الأول . وهدد بأنه يحتفظ بقوة كبيرة من رجال الشرطة ، وعند أول بادرة للشغب سوف يطرد من بالقاعة . وفى حالة من الذعر أذعن الحاضرون فترة واستمعوا للخطابين الأولين دون أن تتجاوز المقاطعة حدودها .

أدلى بهذين الخطابين السيدان تومكنز وميرو فأشاد كل منهما بمزايا طائفته وبما أحرزته من نجاح . وكانا من الحكمة بحيث عزفا عن التعرض لمنافسيهما . ودوى السعال ، وظهر التثاؤب ، وغالب النعاس عددا كبيرا من الحاضرين الذين استسلموا لجو العنف الذى خيم على القاعة ، وغدا المؤتمر وكأنه سينفض فى حالة من السأم والملل . لكن كانت هناك فى الجعبة أسهم نارية . فما أن جلس السيد ميرو حتى دعا تومكنز ثورنى ليلقى خطاب المؤتمر . وكشف السيد ثورنى ، فى مستهل حديثه ، أنه ليس ميالا الى الصلح .

واستهل خطابه بالقول : « سيداتى وسادتى وأنصار طائفة المغنيطسيين الشماليين اننى رئيس الجهاز السرى لجماعة الملبدنيين وأعرف من الحقائق ما هو خاف عليكم ، أعرف دخل سير ماجنوس نورث، وما يبسط يده عليه من اقطاعيات شاسعة فى منطقة الشمال الغربى . كما أعلم أنه يقضى مع الآنسة بوهرا ، من تزعمون أنها امرأة قديسة ، ساعات طويلة من كل عشية ، سواء أكان ذلك فى فسق ودعارة أم فى تجارة رابحة لست أدرى » .

وبهذه الكلمات ساد الذهول المؤتمر دقيقة كاملة لقد كان المغنطيسيون يعرفون مستر ثورنى كصديق لهم ، كما شق على المولبدنيين فهم الدين الجديد الذى يضطلع به • وبينما كان المؤتمر لا يزال منعقدا فى صمت يبعث على الحيرة والقلق ، اذ بمستر واجنر يثب من مقعده ويصـــرخ قائلا :

« لقد استمعتم الى أكاذيب ، وسأخبركم أنا بالحقيقة • ماذا تعرفون عن شركة المعادن المتحدة ؟ وماذا تعرفون عن ثروة المساهم الأكبر فى هذه الشركة ؟ هل تعلمون دور مادة الملبدنوم فى عملياتها التجارية ؟ اننى أستطيع بحكم منصبى كرئيس لجهاز المغنطيسيين السرى ، أن أقدم الجواب المذهل : ان الثورة ضخمة وأساسها مادة الملبدنوم ، والأرملة دين هى صاحبتها المحظوظة » •

وما أن جلس حتى هاج الجانبان فى صورة غضب عارمة ، ومن جانب انطلقت الهتافات تردد « الموت لسـير ماجنوس ! ، والعار لعشـيقته الداعرة » • ورد الجانب الآخر : « ليسقط الأثرياء البخلاء • الى المقصلة بمولبى القاتلة » • ولبرهة وجيزة اتحد الجانبان فى مقاومة فرقة الشرطة• وما أن انتهت هذه المهمة حتى اشتبك القديسون المتنافســون فى ملحمة عنيفة • أما رجال الشرطة الذين احتفظوا بتماسكهم ، فقد استطاعوا أن يطردوا من بالقاعة باستخدام القنابل المسيلة للدموع • وتدفقت الآلاف المذعورة وقد انهمرت دموعهم ودهمتهم نوبة عطس أخذت تحدث صوتا كالرعد • وما أن أنعشهم الهواء الطلق حتى عاودوا الكرة الى القتال فى جماعات متفرقة ، فتمزقت الثياب من فوق ظهورهم ، وتبادلوا اللكمات وداسوا أقدام بعضهم بعضا ، وتعالت العبارات النابية • واستمر الشغب حتى ساعة متأخرة من الليل ، الى أن غلب النعاس المتقاتلين المقدسين ، بعد أن أنهكت قواهم تماما ، فارتموا فوق الطوار البارد فى سبات عميق •

الفصـــــل الســـــابع

كان رجال الشرطة ، فى تلك الأثناء ، يستحثون الشخصيات البارزة فوق المسرح على استخدام باب ســـرى للخروج ، وأبدى رئيس المؤتمر استعدادا تاما لمغادرة المكان احساسا منه بأن القيام بالمهمة التى أسندت اليه لم يعد أمرا ميسورا • أما المندوب النيبالى ، الذى شعر بأن كارثة محققة وشيكة الوقوع ، فقد ربت على كتف البروفيسور قائلا : « دعنى أتول أمرك » • ودفع رجال الشرطة بالرجلين معا الى احدى سياراتهم ، واذ ذاك تساءل البروفيسور : « آه ، ترى الى أين نحن ذاهبون ؟ » فأجابه صديقه الجديد : « الى سفارة نيبال » • وما أن بلغ المكان منهوكا خائر القوى حتى أنعشه اللطف والعطف رويدا رويدا •• وبعد فترة من الزمن استجمع خلالها أفكاره ، عرض عليه منصب أستاذ لمادة تخصصه بجامعة نيبال بمنطقة الهيملايا ، بشرط أن يوقع على وثيقة كتبت بلغة يجهلها ، فوقع على الوثيقة، وبعد أن دعم بذلك أوراق اعتماده، التى كانت تحتوى ـ كما اكتشف بعد ذلك بوقت طويل ـ على بيان أن « تنسنج » هو أول من من بلغ قمة جبال ايفريست • ثم أقلته طائرة الى كرسى الأستاذية حيث طفق يمارس نشاطه الأكاديمى الجديد • وبعد عشر سنوات ، خرج بكتابه الخالد « الدين والخرافة بين سكان الغرب الأصليين » ، غير أن هذا المؤلف لم يقدر له أن يظهر بأية لغة أوروبية •

كانت الكاهنتان تشكلان لرجال الشرطة معضلة عويصة ، فقد اندفعت موللى • ب • دين فى وحشية وجنون ـ وقد نسيت كل ما يحيط بها ـ عبر الممر لتعتدى على أورورا الضخمة ، فنشبت أظافرها فى وجه منافســـتها وأحدثت به خدوشا طويلة دامية ، فما كان من الأخيرة الا أن دفعتها بيدها فطرحتها أرضا ، فصرخت وهى منبطحة على الأرض « يالك من امرأة وقحة خبيثة ! » • فرددت عليها « أورورا » ، بصوت مختلف تماما ، بل أشد قوة وحدة ، عما اعتاده تلاميذها ، تقول « يالك من امرأة سليطة

سارقة ! » • ورفع بعض رجال الشرطة موللى • ب • دين بينما راح عشرة آخرون ، بهراوات ممدودة ، يدفعون أورورا بوهرا الى الأمام ، وزج بكليهما الى عربة السجن حيث مضتا تكيل كل منهما السباب للآخرى عبر فاصل من رجال الشرطة بينهما • ووجهت الى كلتيهما تهمة الأخلال بالأمن واحتجزتا لتقضيا الليلة فى زنزانة منفصلة أثارت تأملات هى أبعد ما تكون عن أية تأملات سارة !

وعاد تومكنز وميرو الى مكتبيهما فى حماية رجال الشرطة ، ولم يكونا يتوقعان تدخل رئيسى مخابراتهما بصورة متطرفة عنيفة • وباكتئاب شديد راحا يفكران فى انهيار العمل الذى قضيا فى بنائه جل حياتهما وقد غاصت رأساهما بين أيديهم • وبالرغم من أن الامتناع التام عن المسكر ، باستثناء من هم فى قصور الانعاش والترويح ، كان من المبادىء الأساسية لكل من الطائفتين فقد عثرت الخادمات فى الصباح على هذين الرجلين المؤمنين منبطحين على الأرض والى جوار كل منهما زجاجة فارغة •

أما زاكارى وليئة فقد اندمج كل منهما فى الآخر على نحو لم يدريا معه ما كان يجرى من حولهما حتى صار الضجيج لا يحتمل ، وخلفهما بمسافة قصيرة كان يجلس بين المحايدين « أنانياس واجثورن » ، أحد المسئولين فى وزارة الثقافة الذى كان قد أرسل ليحصل على بيانات تستعين بها السلطة المركزية عند اتخاذ أى اجراء • ولقد كان رجلا لطيفا قادرا على تمييز الأمور ، ولاحظ اندماج كل منهما فى الآخر • ولما بلغ الاضطراب ذروته مد يدا لكل منهما وقال : « سأحرسكما الى مكان أمين » • ورغم ما انتاب كلا منهما من ارتباك فى حضرة الآخر فقد أذعنا ، اذ لم يكن أمامهما من سبيل آخر ميسور ، وبعون من رجال الشرطة استطاع أن ينقذهما وينقلهما فى هدوء الى مسكنه ، حيث قدمهما الى زوجه التى مضت تنصت اليه فى وعى وهو يسرد ما منى به المؤتمر من فشل ذريع • وكانت زوجة طيبة القلب تحس بعطف بالغ نحو الشباب • فقالت لزوجها : « من رأيى ألا يحاول هذان الشبان العودة الى ديارهما هذه الليلة ، فالشوارع صاخبة مضطربة ولا يمكن لأحد أن يتكهن بما قد ترتكبه الجماهير الغاضبة ، فاذا قنع السيد زاكارى بأريكة غرفة الاستقبال يمكن للآنسة ليئة أن تشغل الغرفة الشاغرة ، ومن ثم يتسنى لكليهما أن يقضيا الليلة هنا » • ووافق الاثنان بامتنان • وسرعان ماراحا يغطان فى نوم عميق اذ كانا منهوكى القوى متعبين •

ولما كان المؤتمر الكبير قد انعقد يوم السبت فقد تسنى لمستر واجثورن أن يبقى بالمنزل فى صبيحة اليوم التالى · وكرس نفسه لمواساة الشابين والتخفيف من حدة مشاكلهما · ولم يدر أى منهما ماذا يصدق مما استمع اليه بالأمس من أمور أفشيت فى غير وضوح · فهل يعقل أن تكون عقيدة الملبدنيين قد قامت على خديعة مالية ؟ وارتعدت أفكار زاكارى من مثل هذا الاحتمال البشع · وهل يمكن ألا تزيد عقيدة المغنطيسيين عن كونها فى طريق سير ماجنوس نورث المفضى الى الثروة والجاه ؟ ولاح هذا التفكير الخانق للبيئة وكأنه يجرد الحياة من كل أهدافها · وحين رآهما مستر واجثورن مكتئبين وبلا شهية لطعام الافطار ، استفسر منهما عما يساورهما من شكوك · فابتدراه بالسؤال : « أيمكن أن تكون هذه الأمور حقيقية ؟ » ·

فأجاب واجثورن : « أخشى أن تكون عين الحقيقة ·· ان مهمتى الرسمية هى أن أقوم بتحقيقات عن كل من الطائفتين ، ومن مجلس التجارة تأكدت مما تمتلكه مسز دين من أسهم ضخمة فى شركة المعادن المتحدة ، كما أنه عن طريق حكومة الاقليم الشمالى ـ الغربى تبينت المنطقة الشاسعة التى يمتلكها سير ماجنوس والاحتمال الكبير لاحتوائها على ثروة معدنية أما علاقة سير ماجنوس بأورورا بوهرا فقد اكتشف أمرها منذ وقت طويل وهى موضع رقابة رجال الشرطة · ولست أشك فى أن والديكما يجهلان ما أفشى فى مؤتمر الأمس ، ويقينى أنهما مقتنعان اقتناعا قلبيا خالصا بأن ما يبشران به من مبادىء انما هو الحق والخير ، وحين يتسع أمامكما المجال للتأمل والتفكير ربما أيد كل منكما أباه واحتفظ بعقيدته كسابق عهده ، لكن الذى أراه أكثر احتمالا هو أنكما سوف تدركان ما أرى أنه الحقيقة فى هذا الموقف المؤلم فتتعلمان كيف تبنيان حياتكما على أساس أشد رسوخا مما استندتما اليه من قبل ·

وصاح كلاهما : « وهل يمكن لأية حركة لها هذا القدر من الانتشار كما لها هذه القدرة الفائقة على التأثير فى أفكار الناس ، أن تقوم على الحماقة والخداع وحدهما ؟ »

فأجاب : « هذا أمر جد ميسور ، ان عملى يقتضى دراسة تاريخ مثل هذه الحركات ، فهى متعددة ، يزدهر بعضها فترة وجيزة بينما يظل البعض الآخر قائما قرونا بأكملها · لكن ليس ثمة علاقة على الاطلاق بين قوة الحركة وحياتها وبين أساسها الذى يقوم على الخير والصلاح » ·

وهنا تناول من رفوف مكتبته مجلدا ضخما بعنوان : « قاموس المذاهب والخرافات والطوائف ومدارس الفكر الدينى » ٠

ثم قال : « لا تتوهما أن ثمة مبررا يحملكما على الاحساس بالخجل أو الاعتقاد بأنكما تختلفان عن بقية البشر من حيث القدرة على الايمان بما يثبت بعد ذلك أنه هراء ٠ ان هذا المجلد يحتوى على مثل هذه الحماقات التى وقعت خلال الألفى سنة الماضية ، وقليل من الدراسة والبحث يكشف لكما أن مذهبيكما يبدوان معقولين ومعتدلين اذا قورنا بكثير من تلك المذاهب ٠ وبما أن كلا من مذهبيكما يبدأ بحرف « م » ، فلنر ما يذكره هذا الكتاب تحت هذا الحرف ٠ كما أوصيكما بدراسة تعاليم مذهب « مكاريوس » ٠ وأؤكد لكما أنها جديرة بالاهتمام ، شأنها شأن مذاهب الماجورنية ، والملاكانية ، والمارسلينية ، والماركوسية ، والماسيونية ، والملكصادقية ، والميتانجسمونتية ، والمورلستشيكية ، والماجلتونية ، ولنأخذ على سبيل المثال ، الماركوسية التى اتبعت ماركوس ، الساحر ٠٠ لقد « كان بارعا فى الخدع السحرية ٠٠ يجمع بين حركات اناكزيلوس البهلوانية وسحر المجوس » ٠ وبهذه الفنون كان يهتك أعراض زوجات الشمامسة ويستبيح لنفسههذه الحرية المطلقة على أساس المبدأ القائل أنه « قد ارتفع فوق كل قوة » ، ومن ثم فانه حر طليق يفعل ما يشاء ، بل لعل من دواعى غبطتكما أنكما لا تنتميان لمذهب جماعة المورليستشيكى التى من « عادة أفرادها أن يلتقوا معا فى مكان منعزل فى يوم معين من كل عام ، وبعد أن يحفروا حفرة عميقة يبدأون فى ملئها بالخشب والقش وغيرهما من المواد القابلة للاشتعال وهم ينشدون ترانيم غريبة خاصة بالاحتفال ٠ وما أن تشتعل النيران فى كومة الوقود حتى تثبت الأعداد الغفيرة الى قلب النار تدفعهم تراتيل الظفر التى يرددها الذين يقفون من حولهم ، وذلك لشراء الاستشهاد المزعوم بهذا العمل الانتحارى » ٠ كلا ، يا صديقى العزيزين ٠ ليس ثمة ما يدعو الى الاحساس بأنكما فريدان فى هذه الحماقة ، فالحماقة شىء طبيعى فى الانسان ٠ اننا نعتقد أن ما يميزنا عن القردة هو قوة التفكير ، ولا نتذكر أن القدرة على التفكير فى العام الأول من الحياة شبيهة بالقدرة على المشى ، نحن نفكر ، هذا حق ، بيد أننا نفكر على نحو من السوء ٠ أشعر معه فى أغلب الأحيان أنه من الأفضل لو أننا لم نفكر ٠٠ وبما أن لدى بعض الأمور التى يتحتم على القيام بها ، فانى أدعكما الآن وشأنكما » ٠

وفى خلوتهما خيم الصمت المشوب بالحيرة والارتباك فى بادىء الأمر ، وفى النهاية قال زاكارى فى تردد : « لست على استعداد للاعراب عن رأيى

فيما سمعت بالأمس وفيما قاله صـــديقنا اللطيف · لكن شـــيئا واحدا لا يداخلنى فيه شك ، هو أنه حينما تطلعت عبر الممر ورأيت الطهر الخالص والحب الصادق يشيعان من عينيك ، لم أقو على تصديق ما يقال من أن المغنطيسيين قوم ساقطون » ·

فتنهدت وقالت : « اننى سعيدة بما قلت يا مستر تومكنز ··· و ··· وان عين الاحساس كان يخالجنى نحو الملبدنيين » ·

فتساءل فى دهشة : وهل يصدق ، يا مس ميرو ، أن شيئا قد أنقذ من وسط هذا الدمار ؟ وبعد أن جرفنا التيار على انفراد وفرق الشـــك واليأس بيننا وبين رفقائنا القدامى وآمالنا السابقة ، هل لى أن اعتقد أن كلا منا قد اكتشف الآخر فى هذه الليلة التى نبدو فيها كأننا فى عزلة ؟ » ·

فقالت : « أحسب أن ذلك ممكن يا مستر تومكنز ·· » ·

وعقب هذه الكلمات ارتمى كل منهما بين ذراعى الآخر ·

ولبرهة نسيا أحزانهما فى نشوة متبادلة ، لكن سرعان ما تنهدت ليئة وقالت : « لكن ماذا نفعل يا زاكارى ؟ أنحطم قلبى أبوينا ؟ وماذا يمكن أن نفعل خلاف ذلك ؟ انه لمن المتعذر أن نتزوج وأن نواصـــل الاعتراف بعقائدنا العديدة السالفة » ·

فأجابها بالقول : « كلا ! هذا مســـتحيل ، وعلينا أن نخبر أبوينا بارتدادنا عن العقيدة مهما يكن وقع ذلك أليما عليهما ، ومن الآن فصاعدا ينبغى أن نكون يا آنسة ليئة ، صفا واحدا فى الفكر والقول والعمل ، وذلك لن يتحقق لو أننا رضينا بولاء متجزىء ·· » ··

وبقلبين مثقلين ، قررا مواجهة أبويهما بحقيقة الأمر دون أن يترددا أمام المحنة اذا كانت نار الحب المتأججة تدفعهما الى ذلك دفعا ·

الفصـــل الثـــامن

بعد مباحثات عديدة ، قرر زاكارى وليئة تأجيل مواجهة أبويهما الموقرين الى اليوم التالى ، لا سيما أن « واجثورن وزوجته قد طلبا اليهما فى عطف بالغ أن يمكثا معهما ليلة أخرى · واثر تناولهما طعام الغداء ، انطلقا يتنزهان فى حدائق كنســـنجتون ، ولما كانا ، حتى تلك اللحظة ، لا يعرفان من الدنيا سوى المكاتب طيلة الأسبوع وقاعات الاجتماع الفسيحة فى أيام الآحاد ، فقد سلب جمال الطبيعة لبهما وراحا يستمتعان بالعواطف التى حملت الآخرين على زيارة جبال الألب وشلالات فكتوريا ·

وقال زاكارى ، وهو يمتـــع عينيه بحـــوض من زهور التيوليب (الخزامى) المتعددة الألوان : « يراودنى التفكير فى أن حياتنا الماضية لم تكن تشغلها سوى أمور تافهة محدودة ، ويقينى أن هذه االزهور لا تدين بشىء لعنصر الملبدنوم ! » ·

فأجابت ليئة : « كم هى منعشة للنفس كلمات الحكمة المنسابة من فمك ! اننى بدورى واثقة من أنه لا دخل للمغنطيسية فى خلق هذا الجمال الطبيعى » ·

وأجمعا على أنهما يشعران وكأن عقليهما يتسعان وقلبيهما يكبران كلما مر الوقت منذ أن لاذا بالفرار من عبودية العقيدة وربقتها » · لقد نشآ على عبادة القوة ولم يظهر أيهما فى هذا الميدان تفوقا أو انغماسا ، كما أنهما تعلما ازدراء كل ما هو دقيق ورقيق ، وكل ما هو هش وسريع الزوال · لقد كان زاكارى يستمتع ، فى خجل دفين ، بدواوين الشعراء ، لكن شعوره كان أشبه بشعور مدمن المورفين وهو يتعاطى جرعات منه خلسة · أما هى ففى الساعات المختلسة التى كانت تقضيها فى العزف على البيانو كانت تؤثر الأوقات التى تعلم أن أباها يغيب فيها · غير أنه ، لحسن الحظ ، لم يكن ينعم بأذن موسيقية ، وفى المرات التى أمسك بهاوهى تجلس

الى المعزف تسنى لها أن تقنعه بأنها تدرس كتاب ترانيم المغنطيسيين ٠ أما الآن فكانا يحسان ، على الأقل ، بأنه لم يعد ثمة مبرر يدعوهما الى أن يخجلا من ذوقيهما ٠

لكن المخاوف لم تتركهما ٠٠ مخاوف تتعلق بالعالم وبنفسيهما ٠٠ وتساءلت ليئة فى شىء من التردد : « أتعتقد أن بوسع المرء أن يكون خيرا دون عون من عقيدة ؟ لقد عشت ، قبل الآن ، حياة لا غبار عليها ، فلم أفه قط بكلمة نابية ، ولم أذق للخمر طعما ، ولم أعان من تلويث التبغ لرئتى ، ولم يحدث مرة أن اضطجعت ورأسى متجهة الى غير القطب المغنطيسى ، كما لم آو الى فراشى فى ساعة متأخرة من الليل ، ولم أستيقظ بعد الساعة المحددة ٠٠ ولقد لمست مثل هذا التفانى بين أصدقائى ٠ لكن هل يتسنى لى مواصلة الحياة على هذا النحو ، وأنا لم أعد أشعر أن كل عمل أقوم به وكل نسمة أستنشقها انما هو ضرب من الولاء والتعبد للأرض المغناطيس الأكبر ؟ » ٠

فكان رده : « وا آسفاه ! ان عين الأمور المحيرة تضايقنى ٠ وأخشى أننى قد أكتفى فى الصباح بلمس أصابع قدمى أقل من تسع وتسعين مرة ، بل ربما رضيت بأخذ حمام من الماء الفاتر ، كما أنى لم أعد أثق بأن الخمر والتبغ يقودان الى الجحيم ٠ فما هو مصيرنا وهذه الشكوك تساورنا ؟ هل نسلك سبيل زينة الدنيا وزخرفها الذى يؤدى الى انهيار أخلاقى ودمار جسدى ؟ وما الذى يحفظنا ، ويحفظ الذين كانوا ، من قبل ، شركاء لنا فى العقيدة من الانغماس شيئا فشيئا فى السكر والعشق والدمار ؟ وماذا يكون جوابنا ، حينما نلتقى بأبوينا ويأخذان فى الجدل بأن مذاهب ، كمذاهبيهما ، سواء أكانت على حق أو باطل ، ضرورية لحفظ الجنس البشرى ؟ اننى لا أدرى بعد ما عسى أن يكون ردنا ، فلنأمل أن يلهمنا الغضب الأبوى جوابا حين تحين اللحظة » ٠

فقالت : « ليت ذلك يحدث ، لكنى أقر بأن المخاوف تستبد بى لأننا ، ونحن مسلمان بقوة العقيدة ، لم نحجم تماما عن الخطيئة ، فقد ارتكبت ، أنت بشعرائك ، وأنا بمعزفى ، خطيئة الخداع ٠ فاذا كنا قد أخطأنا فى الماضى فما عسى أن تكون حالنا اليوم ؟ » ٠

وعادا لتناول الشاى على مائدة أسرة واجثورن مثقلين بهذه الفكرة الكئيبة ٠ يخيم عليهما الغم ويملأ الحزن نفسيهما ٠

وفى صبيحة يوم الاثنين سعى كل منهما الى أبيه فى اصرار على أن يبسط له الأمر كما ينبغى ، وأن يحاولا تحقيق الصلح ان كان ذلك ممكنا ٠ ووجد زاكارى أباه فى مكتبه تحوطه المتاعب من كل حدب وصـــــوب ، فالاستقالات قد تراكمت فوق قمطره كما كانت مقالات الهجوم التى نشرتها الصحف التى كانت من قبل صديقة ، نذر خراب ودمار ، فبعد قضاء يوم الأحد فى استجمام واسترخاء قررت غالبية الذين تقاتلوا كمؤمنين مخلصين لهذه الطائفة أو تلك ضرورة نبذ الطائفتين سواء بسواء ٠ ففى عشية يوم السبت انضم نصف الجماهير الى مستر تومكنز بينما انحاز النصـــف الآخر الى مستر ميرو ٠ أما اليوم فان الأعداد التى مرت بالمكتبين ، وان يكن الوقت غير مناسب للتجمهر ، أظهرت عددا مماثلا لكليهما ، ولم يحم البقية القليلة المؤمنة من العداء الموحد لأولئك الذين أحسوا بأنه قد غرر بهم سوى قوة كبيرة من رجال الشرطة ٠ وان كان مســـتر تومكنز ظل متمسكا بايمانه الا أنه حار فى فهم مقاصد العناية الالهية من السماح بما حدث ٠ وما أن رأى زاكارى حتى ارتسم على محياه بصيص من أمل ٠

وقال متأوها : « يا للمحن التى تحل بالصالحين ! أما أنت ، يا من علمتك منذ نعومة أظفارك الايمان الصحيح ٠٠ أنت ، يا من حياتك النقية وايمانك الراسخ هما من أعظم مصادر البهجة والسعادة لحياتى المتعبة ٠٠ أنت لن تتخلى عنى فى هذه الســـاعة الحرجة ٠ لم أعد شابا وقد لا تسعفنى قوتى فى هذه الســـن فى اعادة بناء تلك الطائفة العظيمة من أساسها بعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى من النصر الحاسم ٠ أما أنت فبشبابك القوى وحماسك المتأجج الذى لم يشبه شك أو ريبة ٠٠ فسوف تعيد بناء الصرح المتهدم أشد نقاء ، وأكثر بهاء ، وأقوى اشعاعا من ذلك الذى أحالته محنة يوم السبت أنقاضا » ٠

وكان لهذه الكلمات وقعها البـــالغ على نفس زاكارى واغرورقت عيناه بالدموع ، وتمنى من صـــميم فؤاده أن يجيب بما يتوق أبوه الى سماعه ٠ وما كان ذلك بوسعه ، فقد حال دون اذعانه ما هو أقوى من الشكوك الفكرية التى ساورته حول فوائد الملبدنوم الفسيولوجية ٠ فالتفكير فى ليئة جعل الخضوع لأبيه أمرا متعذرا اذ أن أباه لا يوافق على الزواج من عضو فى طائفة المغنطيسيين ، وأدرك زاكارى أنه لا مناص من أن يفصح عما يجول بخاطره مهما كان الوقع على نفس أبيه أليما ٠

قال : « أبى ، وان كنت أرق كثيرا لحزنك ، الا أننى لا أستطيع تحقيق

رغبتك ، ولقد ارتددت عن العقيدة ، انكم لتؤكدون لنا أن المبدنوم يشفى أمراض الصدر ، لكنك تعلم ٠٠ أو على الأقل ارتبت فى أننى مصاب بالتهاب رئوى ٠ يقال لنا ان المبدنوم يقوى عضلاتنا ، ومع ذلك فان أى عربيد كافر من الأحياء القذرة بوسعه أن يحيق بى الهزيمة فى أية مباراة للمصارعة ولعل هنالك تفسيرا لهذه الأمور ،لكن ما هو أشق وأعوص هو أننى أحب ليئة ميرو ٠٠ » ٠

وشهق أبوه قائلا : « ليئة ميرو ؟ »

« أجل ، ليئة ميرو ،وقد وافقت على أن تصبح زوجا لى ، فهى لم تعد ، مثلى تؤمن بالعقيدة التى ترعرعت بين أحضانها ٠ كما أنها عقدت العزم ـ مثلى ـ على أن تسلم بالحقائق المرة مهما يكن فى ذلك من تحطيم لعالم من العقائد عزيز على النفس ٠ ولم تعد عقيدتك أو عقيدة مستر ميرى مصدر الهام لحياتنا ، انما نريد أن نحيا حياة لا تقيدها أغلال العقيدة وأن وأن نعيش أحرارا فى أن نقبل ما توحى به الحقائق بعقول متفتحة لرياح السماء ، غير مغلقة بنظام مريح يشيع منه الدفء الى حد ما ! » ٠

فأجاب أبوه : « آه ، انك تحطم قلبى يا زاكارى ! أنت تطعننى فى الجرح المميت ! ألا يكفى أن العالم قد انقلب ضدى ؟ هل ينضم ابنى الى صفوف أعدائى ؟ آه ، يا له من يوم رهيب ! انك برعونتك القاسية لا تقضى على فحسب بل تحطم عالما بأسره ٠ ماذا تعرف عن طبيعة البشر ؟ وأنى لك أن تقدر القوى الفوضوية الضاربة التى تطلق سراحها « رياح السماء الطليقة » التى تتحدث عنها ؟ ما الذى ، فى تصورك ، يكبح جماح الناس عن القتل والنهب والدعارة وارتكاب جرائم الاحراق العمد ؟ هل تتوهم أن قوة المنطق التافهة قادرة على تحقيق هذا الهدف العظيم ؟ وا أسفاه ! لقد ضربت سياجا حول حياتك حتى لا تعرف الجانب المظلم من الطبيعة البشرية ٠ فآمنت بأن اللطف والصلاح ينموان نموا طبيعيا فى قلب الانسان، ولم تدرك أنهمـــا النمو غير الطبيعى لمعتقدات غير طبيعية ٠ هذه هى المعتقدات التى حاولت أن أغرسها فى نفسك ، وفى هذه الساعة الحالكة السواد أعترف بأن هذا ما كانت تضطلع به طائفة المغنطيسيين ، ولازلت أومن بأن عقيدتنا أسمى من عقيدتهم سمو شمس الظهيرة عن آخر بصيص لنور الشفق ٠ مع أن ما تقدمه ليس نور الشفق بل ليلا مدلهما حالك السواد ٠ ولكم من أعمال شريرة ترتكب فى الليل ٠ فان كان هذا ما تنوى

الاضطلاع به ، فستقوم بينى وبينك عداوة أعمق وأشد ضراوة من تلك التى فرقت بينى وبينَ أنصار طائفة المغنطيسيين » ٠

وجاءت استجابة زاكارى لهذا الحديث بعكس ما كان أبوه يتوقع اذ قال : « كلا ! كلا ! ليس بالزور والبهتان يكون خلاص بنى الانسان ، فأنت تتوهم أنك تقيم الفضيلة ، ولكن ما الذى تبنيه حقا ؟ انها ثروة موللى ٠ ب ٠ دين التى تخال أنها امرأة قديسة ٠ هل القداسة هى التى ألهمتها خدش وجه أورورا بوهرا ؟ وهل القداسة هى التى حملتها على اخفاء أرباحها المالية تحت اسم شركة المعادن المتحدة ؟ ولم أذهب بعيدا ، هل تدرك أنك ضحيت بحياتى نتيجة سلامة نيتك ؟ وهل تعلم أنك حرمتنى مما يحتاج اليه جسمى من علاج اذ لم يكن علاجى من النوع الذى يصنعه مذهبك ؟ ألا ترى أن هنا ، فى حالتى الخاصة ، عينة من الشرور التى يقاسى منها أولئك الذين يستعيضون عن الحقيقة بالعقيدة ؟ اننى لا أؤمن بأن الطبيعة البشرية على هذا النحو من السوء كما تقول ٠ لكن ان جانبك الصواب فى ذلك فما من نظام مفروض يمكن أن يشفى الشرور ، ذلك لأن الذين يفرضون تنظيما سوف يعملون بوحى من عواطفهم الشريرة وسيجدون طريقة غير مباشرة لفرض ضريبة العذاب التى يمليها شرهم ٠ كلا ! انكم لاتفعلون أكثر من تنظيم الشر ، وحين ينظم الشر يصبح أشد رعبا من أى شىء يتمخض عن تلك العاطفة الفوضوية الطبيعية ٠ وداعا يا أبى ! ان حبى ووجدانى هما لك ٠ وأما نشاطى فليس كذلك من الآن فصاعدا ! » ٠

وبهذه الكلمات انصرف ٠

وأتخذ لقاء ليئة مع أبيها أسلوبا مماثلا كما انتهى الى نفس المصير ٠ وحاول كل من تومكنز وميرو مواصلة الكفاح القديم ، لكن قدرتهما على التأثير كانت قد فارقتهما ، ولم يبق من التابعين المخلصين سوى نفر قليل يعيشون فى مناطق منعزلة نائية ٠ واضطر السيدان تومكنز وميرو أن يخليا مكتبيهما الفاخرين ، اذ لم يعد سيرا ماجنوس ومسز دين يؤمنان بجدوى ما يدفعانه وبعد أن أصبح الرجلان يعتمدان على هبات البقية الضئيلة الباقية من التابعين ، بدءا ينحدران الى فقر مدقع ٠

وظل سير ماجنوس ومسز موللى ٠ ب ٠ دين ثريين ، وان منيا بخسائر فادحة ، لكنهما استطاعا أن يعوضا ، الى حد كبير ، هذه الخسائر

بتوحيد مصالحهما ، مما أسفر عن تبدد الخلاف القائم بين الولايات المتحدة وكندا • فتبسمت الحكومتان بالرضى على مشروعاتهما المشتركة • أما أورورا بوهرا التى لم تتصور أن ما أحرزته من نجاح انما كان يتوقف على أموال سير ماجنوس فقد بقيت بالمصح تستقبل كعادتها الزوار القلائل الذين مالبثوا يترددون • بيد أن القصر أخذ يتعرض للهجر رويدا رويدا • ولاحظ المؤمنون القلائل ما طرأ على قواتهما من ضعف • وعزا المتعصبون بين من بقى لها من أتباع انهيارها الى تأثير الملبدنوم الشرير ، وعصفت بهم الشكوك فى أنها قد ارتدت عن الايمان ، لكن وا أسفاه لقد بدأ الدليل على ارتدادها يتضح شيئا فشيئا ، ففى بداية الأمر انغمست فى السكر ثم راحت ترتاد مملكة « الحشيش » • وكان لا مفر فى نهاية المطاف من حملها بعيدا ، وهى تهذى فى جنون ، وتركها فى مستشفى الأمراض العقلية تقضى أيامها الأخيرة •

وأما زاكارى وليئة اللذان لم يعرفا الفاقة ، وكان يفترض أنهمـــا سيخلفان أبويهما فى مراكزهما المريحة المجزية ، فقد وجدا نفسيهما فى حالة احتياج شديد الى بعض مقومات الحياة ، غير أن زاكارى الذى أقنع مستر واجثورن بقدرته على الفهم والاستيعاب والذى نال قسطا وافرا من المعرفة عن طريق قراءاته الواسعة ، فقد عين بتوصية من مســـتر واجثورن فى احدى الوظائف الصغيرة بوزارة الثقافة • وتزوج زاكارى من ليئة بعد أن ساعدتهما مسز واجثورن فى تأسيس مسكن صغير •

وانهمكت ليئة فى تدبير شئون المنزل وفى حبها لزاكارى فلم يكن أمامها متسع من الوقت تشعر خلاله بالسأم والملل ، كما لم يعاودها الحنين الى الحقائق السابقة • أما التكيف بالنسبة لزاكارى فكان أشق وأعسر • لقد كان اتخاذ القرارات فى سالف الأيام أمرا يسيرا أما اليوم فهو أمر عسير ، وكان يقف حائرا : هل يقبل هذا أم ذاك ؟ وهل يؤمن بهذه أو تلك ؟ ووجد نفسه يحوطه التردد دون وجود بوصلة بحرية تقود سفينة حياته • وبات من عادته أن يقضى أيام الآحاد فى مسيرات طويلة على انفراد •

وفى عشية أحد أيام الشتاء ، وبينما هو فى طريق العودة منهوك القوى يشق طريقه وسط ضباب كثيف وتتساقط عليه قطرات من الرذاذ ، اذ به يجد نفسه خارج معبد من الصفيح حيث كانت بقية من جماعة الملبدنيين مازالت تتعبد ، وعلى نغمات أرغن صغير طفقوا يرتلون تلك الكلمات المعــــروفة :

الملبدنوم أحسن المعادن

نافع للعظيم والحقير

يشفى جميع أمراض الصدر

وينمى أيضـــا عضلاتنا

وتنهد ، وراح يهمهم بالقول : ليتنى أعود الى أحداث الماضـــــى الرائعة ! آه لكم هى قاسية « حياة المنطق » !

فهـــرس

رقم الايداع ٨٥/٧٦٥٧
الترقيم الدولى ٣ ـ ١٤٨٠ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب